لعنة الحارس

رواية

محمد أحمد فؤاد

الهيئة العامة لقصور الثقافة

2024

نائب رئيس مجلس الإدارة

محمد عبدالحافظ ناصف

رئيس الإدارة المركزية للشئون الثقافية

د. مسعود شومان

مدير عام النشر الثقافى

الحسيني عمران

الإشراف الفني

أ.د. إسلام عبدالحميد زكي

* لعنة الحارس
* محمد أحمد فؤاد

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة ٢٠٢٤م
20x14 سم

* تصميم الغلاف: ريهام خيري

*المراسلات باسم:
الإدارة العامة للنشر الثقافى
على العنوان التالي: الهرم - تقاطع ش اليابان مع ش خاتم المرسلين - قصر ثقافة الجيزة - الدور الثاني.

إبداعات 432

سلسلة تعني بنشر إبداعات الكتاب الشباب تحت سن ٤٥ سنة.

هيئة التحرير

مدير التحرير
سعيد شحاتة

سكرتير التحرير
هبة أحمد

رقم الإيداع بدار الكتب 2024\27302
I.S.B.N 978-977-92-3221-8

❖ **حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.**

❖ **يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأي صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة، أو بالإشارة إلي المصدر.**

❖ **الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.**

الإخراج الفني
وحدة التجهيزات الفنية بالنشر الثقافى

إهداء

إلى أطفال اليوم
الذين سوف يشهدون في شبابهم
كوارثَ التغيُّر المُناخي
غير المسبوقة في تاريخ البشرية...
أعلمُ أن مستقبلَكم لن يكون هيِّنًا
فحاولوا في حاضركم أن تؤجِّلوا هذا المصيرَ
قدرَ الإمكان...
لقد بدأ العد التنازلي
ونحن للأسف مَن أشعلنا الفتيل!

تسونامي الإسكندرية... تسونامي الإسكندرية... تسونامي الإسكندرية.
الكلمتان تتردَّدان في ذهنه، وهو يتجوَّل على الكورنيش، وينظر إلى كازينو الشاطبي الذي تحطَّمت نوافذه، وأصبح مائلًا إلى الجهة الشرقية، بفعل الأمواج الهائلة التي ضربته قبل ستة أشهر.
شاع في الأخبار حينها أن الخسائر الناجمة عن التسونامي محدودة، وقد هوَّنت الحكومة منها كثيرًا، وقالت إن الخسائر لا تُذكر؛ ولكنه بعد أن وصل إلى مصر، قادمًا من اليمن، التقى ببعض سكَّان حي (بحري)، الذين وُعِدوا بتعويضات عن منازلهم العتيقة التي دمَّرتها الأمواج، ثم تركوا إلى الآن في إحدى الساحات يحيون بخيامٍ، معزولين عن التغطية الإعلامية، لكيلا يلتفت أحدٌ إلى فداحة هذه الكارثة؛ ولذلك كان يعلم جيِّدًا أن (الخسائر) غير محدودة على الإطلاق، وأن تجاهل مقدِّمات الكارثة، لن يمنع السير بخطوات حثيثة نحو الفاجعة الكبرى... غرق الإسكندرية.
تجاوز منطقة كازينو الشاطبي. ألقى عليه أحد المارَّة نظرة فضولية، اعتادها طوال مدَّة تنفيذ مهمته في الشرق الأوسط، بسبب ملامحه الأوروبية. فابتسم بعد أن تخطَّاه، ثم لم تلبث الابتسامة أن زوحِمَت بعبوسه الذي يلازمه منذ اطلاعه على المؤشرات غير المبشرة بأي خير، التي اعتاد أن يرسلها إلى رئيسه بشكل دوري، منذ ابتداء مهمته في الشرق الأوسط، والتي أصبح إرسالها، من بعد تدوين تفاصيلها في التقارير، عبئًا لا يُحتمَل. مَن يحتمل أن يلاحظ، وأن يُثبت، وأن يكتب، وأن يرسل هذه الكلمات: «ثبت بالدليل القاطع انقراض ثلاثة أنواع من الفراشات، وحشرة الجندب»؟!

تسونامي الإسكندرية... تسونامي الإسكندرية... تسونامي الإسكندرية.
عادت الكلمتان تتردَّدان في ذهنه، وأخذ يتساءل: متى يأتي الوقت المناسب؟ متى تحل الظروف التي ستدفع الناس إلى اتخاذ موقف حاسم في مواجهة الهاوية التي توشك أن تمسَّ أطراف أقدامهم؟ وهل لرئيسه خطة، أم إن مهامهم ستقتصر على مجرد إمساك كاميرا من أجل توثيق دمار العالم؟!

الفصل الأول

سجن عمره ٤٥٠٠ سنة!

لم تتخيَّلْ رنيم أن تحدثَ هذه الكارثة لها هي وصديقيها في نفس اليوم الذي ظلَّت تنتظره طوال حياتها، وخاصةً أنها المرة الأولى التي تسمح لها أمها فيها بالسفر إلى خارج الإسكندرية، دون أن ترافقها؛ بسبب قلقها الدائم عليها، وخشيتها من أن يصيبها أي مكروه!

هل حظها سيئ إلى هذه الدرجة؟! كيف تتحوَّل البهجة والمرح إلى سجنٍ موحِشٍ كهذا؟!

كانت جالسةً في أحد الأركان، مُسنِدةً ظهرها إلى الحائط الحجري، ووجهها بين كفَّيها، تحاول أن تتغلَّبَ على هذه الصدمة، وجسدها الصغير يرتجف بشدَّة، وضفيرتاها ذواتا اللون البني الفاتح تتأرجحان مع ارتجافها.

رفعت رأسها، وعدلت الشال الأزرق الذي يحيط بعنقها النحيل، وراحت تتأمَّل هذا السجن البارد مرةً أخرى من وراء نظَّارتها.

كان الرعب والقلق يملآن قلبها، ولا سيَّما بعد مرور وقت طويلٍ نسبيًّا على وجودها هي وصديقيها داخل هذا السجن، ولذلك أحسَّت وهي تتأمَّل المكان أنها تنظر إليه للمرة الأولى! فكيف لعقلِ طفلةٍ، تشهد لأول مرة في حياتها القصيرة موقفًا بهذه الخطورة، أن يستوعبَ ما يواجهه من تفاصيل

وأحداث، ويحسن التعامل معها بشكل صحيح؟

كان على اليمين واليسار عمودان من الجرانيت يتوسَّطهما هرمٌ صغيرٌ تعلوه نقوشٌ هيروغليفية، وهناك إضاءة خافتة جدًّا مائلة إلى الاحمرار تنبعث من بعض الأحجار الشبيهة بالياقوت التي تُرصِّع جدران المكان. وأمامها صديقاها سليم وكريم، يقفان متواجهَين... سليم بقوامه النحيل وقامته القصيرة وشعره الناعم المنسدل على جبينه، وكريم بجسده الممتلئ قليلًا وقامته التي تعلو قامات كل الطلبة في الفصل، وبينهما حقيبة ظهر كريم السوداء، موضوعة على الأرض المُترَبة. وكانت على ملامحِهما، التي تلوَّنت بلون الياقوت، قلقٌ شديدٌ مثلها.

لم تحاول رنيم أن تتابع حديثهما خلال آخر عشر دقائق، منشغلةً بمحاولة التغلب على قلقها، وتمالُك جسدها الذي لم يكفَّ لحظةً عن الارتجاف. كانت تريد أن تنفصل تمامًا بعقلها عن هذا السجن، وكان النقاش الدائر بين صديقيها يزيدها توترًا، وخصوصًا لأن كريم كان يُحمِّل سليم المسئولية الكاملة عن هذه الكارثة.

ولعلَّه كان محقًّا!

بدا عليهما أنهما موشكان على العودة إلى نقاشهما الحاد، فدفنت رنيم وجهها بين كفيها للحظاتٍ، قبل أن ترفع رأسها، بسبب ارتفاع صوت كريم بدرجةٍ أعلى؛ فقد أخذ سليم يفتح فمه ويغلقه متردِّدًا، كأنه يريد أن يقول شيئًا، ويخشى ردَّ فعل صديقه، فانفجر فيه كريم قائلًا في نفاد صبر:

- هيا أخبرني بما تريد؟ ومن فضلك، لا أريد أن أسمعَ اعتذارًا آخر.

فتابع سليم غلق فمه وفتحه، فصرخ كريم:

- هيا، انطق.

همَّ سليم بأن يعطس، فابتعد عنه كريم، فعطس عطسةً هائلةً، أخذ يلهث بعدها كأنه قد بذل مجهودًا كبيرًا، وتصاعد بجواره عمودٌ من الغبار.

التفت إليه كريم غاضبًا، وصاح فيه:

- أنت السبب.

وعندئذٍ كانت رنيم قد وصلت إلى ذروة التوتُّر، فاقتربت منهما، وقالت لسليم في غضبٍ مماثل:

- نعم، أنت السبب.

نظر سليم إليهما مندهشًا وتساءل:

- السبب في ماذا؟ تقصِدون العطسة؟! لا، لا. بالتأكيد لست أنا السبب فيها. أنتم تعلمون أن الغبار يهيج أنفي دائمًا، ويجعلني أعطس.

فتساءلت رنيم متعجِّبةً:

- أين الغبار؟ إنه كما هو منذ احتجازنا هنا قبل نحو ثلاث ساعات، ونحن لا نزال نتحرَّك في المكان بحرصٍ خوفًا من أن تتجدَّد ثورته.

واقترب كريم من سليم، ومال عليه برأسه وهو يسأله بنبرةٍ لائمة:

- ومن الذي جاء بنا أصلًا إلى هذا المكان المليء بالغبار؟

فأجابت رنيم بسرعة مشيرةً إلى سليم:

- هو طبعًا.

لكن سليم تغيَّرت ملامحه، وقال مدافعًا عن نفسه:

- أنت مخطئة. المَدْرسة هي التي نظمتْ هذه الرحلة، وجميع الطلبة كانوا يريدون أن يزوروا معالم القاهرة الأثرية، وعلى رأسها (أبو الهول) و (الأهرامات).

وملتفتًا إلى كريم:

- وأنت يا كريم كنت أكثرَنا رغبةً في أن تزور هذه المنطقة الأثرية، بل وسجَّلتَ أسماءنا نحن الثلاثة في طليعة الطلبة المشاركين لكي نكون معًا. هل تُنكِر؟

قطَّب كريم، وارتدَّ بذاكرته إلى لحظة تسجيلِه أسماءَهم في قائمة المشاركين في الرحلة، التي كان مقدَّرًا لها أن تنطلق من الإسكندرية إلى القاهرة يوم الثلاثاء. كان هو بالفعل أكثرهم حماسةً لهذه الرحلة، وأول من لاحظ الإعلان، دون صديقيه. فسارع إلى تسجيل أسمائهم، وقد أضمر في نفسه أن يُفاجئهم بهذا الأمر، ولكن كان هناك عائق بسيط، هو ضرورة دفع تكاليف الرحلة في لحظة التسجيل، غير أن الأستاذ المشرف على الرحلة لم يُلقِ بالًا لهذا الشرط؛ لأن الأصدقاء الثلاثة كانوا مشهورين في المدرسة بنشاطهم، وبمشاركتهم في الجماعات الثقافية والمسابقات العلمية، وكذلك اهتمامهم بالقراءة في مكتبة المدرسة واستعارة الكتب منها؛ ولذلك سجَّل أسماءهم من فوره، وأرجأ دفع تكاليف الرحلة إلى اليوم التالي، الذي كان يسبق يوم الرحلة. وما لبث كريم أن أخبر صديقيه، فانتقلت إليهما منه عدوى الحماسة، وأحضر كلٌّ منهم في اليوم التالي قيمة الاشتراك، وهاهم اليوم في منطقة الأهرامات الأثرية... ولكن...

ندم كريم على استسلامه لدوامة الذاكرة، وحنق من تشتيت سليم لأفكاره، فهتف فيه مستنكرًا:

- عن أي شيءٍ تتحدَّث يا سليم؟ أجل، أنا بالفعل كنت أكثركم حرصًا وتشوُّقًا لهذه الرحلة، ولكن أنا لم أقصد أنك أنت السبب في إحضارنا إلى

منطقة الأهرامات الأثرية... بل قصدت شيئًا آخر. هل نسيت؟!

فقال سليم:

- أنت قلت أنني أنا الذي أتيت بكم إلى هذا المكان المليء بالغبار. ومنطقة الأهرامات الأثرية مليئة بالغبار. وقد أثبتُّ لك أنك أنت الذي تحمَّستَ لرحلة القاهرة من البداية.

فقالت رنيم وهي تشير بيدها إلى أركان المكان:

- وهل الغبار الذي يملأ المنطقة الأثرية يشبه غبار هذا المكان؟ انظر... إن الغبار هنا أكثر بعشر مرات، ويثور لأتفه سبب. انظر.

ونفخت نفخة بسيطة، فثار الغبار في اتجاه النفخ، ثم ضربت الأرض بقدمها، فانبعث الغبار كثيفًا حتى وصل إلى منتصف ساقيها. وعندئذٍ عطس سليم مرَّةً أخرى، فاندفع الغبار من حوله بشكل أكثف.

تهاوى على الأرض منهَكًا، وقال في حزن:

- أنا آسف. لم أكن أعلم أن رغبتي في أن أرى ما بداخل (أبو الهول) سوف تقودنا إلى هذا السجن. لكنني فقدتُ صوابي ما إن رأيتُ البابَ الذهبيَّ الموجودَ بين قائمتي التمثال الأماميتين. أجل، هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذا الباب. كل الصور التي رأيتها من قبل لـ(أبو الهول) لم تظهر بها أية أبواب؛ ولذلك تعجَّبت كثيرًا حين أبصرتُه أمامي. باب ضخم، من الذهب الخالص، تنتظم في أطرافه رسومٌ هيروغليفيةٌ، وفي وسطه نقشٌ بديعٌ للشمس وهي تُرسل أشعَّتها إلى أحد الملوك. لم أتمالك نفسي. ناديتكما، فتركتما فوج الطلبة، وجئتما معي. ضغطنا معًا على نقش الشمس... انفتح الباب... ودخلنا تمثال (أبو الهول)...

وسكت لحظةً قبل أن يُردفَ بصوت خافت:

- وحدث ما حدث... أنا آسف مرة أخرى.

فهتف كريم غاضبًا:

- هأنتذا تعيد الاعتذار! ألم أقل لك إني سئمتُ كلَّ اعتذاراتك؟!

وأردف مقلِّدًا سليم بطريقة ساخرة:

- وحدث ما حدث! وحدث ما حدث!

وتابع في سخط:

- هل لديك شجاعةٌ كافيةٌ لأن تحكي بالتفصيل ما حدث بالضبط لكي نتقبَّل اعتذارك، ونعلم أنك لا عَلاقة لك بهذه الكارثة؟ هل تستطيع؟ أم إن اندفاعك وتسرُّعك وتهوُّرك الدائم أنسَوْك تفاصيل هذه الكارثة التي أوصلتَنا إليها؟!

وضع سليم يديه على رأسه، ونظر إلى الأرض في حزن، بينما اقتربت رنيم من كريم، وقالت وهي تنظر إلى سليم في ريبة:

- لن يحكي لك شيئًا. هو يعرف تمامًا أنه هو السبب في كل ما جرى لنا، ولذلك لن يحاولَ أن يستعيدَ ما حدث. كلنا شَهِدنا هذا الأمر يا كريم على أية حال، ولا أظن أن استرجاع التفاصيل سوف يدلُّنا على طريق الخروج. ليس فينا أحدٌ رأى ما لم يرَه الآخرون.

فرفع سليم رأسه، وسألهما بصوت خافت:

- رأيتما الدوَّامة القرمزيَّة الهائلة التي ظهرت في منتصف المكان؟

فقال كريم في لامبالاة:

- رأيناها.

فقال سليم:

- أحسستما بالرياح المتربة التي كانت تلمع فيها نجوم صغيرة؟

فأجاب كريم مشيحًا بوجهه:

- أحسسنا بها يا سليم.

فقال:

- شممتما رائحة الصبَّار النفَّاذة؟

فقالت رنيم في ضيق:

- شممناها يا سليم.

فقال في يأس:

- حاولتما دفع الباب الذهبي معي بعد أن أُغلِق مِنْ ورائنا مباشرةً، وفشلتما؟

فقالت رنيم في نفاد صبر:

- حاولنا وفشلنا... حاولنا أكثر من سبع مرات وفشلنا يا سليم. لسنا في حاجةٍ لأن تذكِّرنا بأننا لن نتمكَّن من الخروج.

هزَّ سليم رأسه في أسف وقال:

- إذًا، يبدو أنكما رأيتما بالفعل ما رأيته، ولا أظنُّ أن شيئًا مختلفًا مرَّ بي. وما دمتما لم تعرفا تفسير ما حدث، فلا أظن أنني أيضًا سأعرفه.

ونظر إلى الأرض في تعاسة، ووضع يده اليمنى على خدِّه، فالتمع برسغه شيءٌ ما!

اقتربت منه رنيم، وأشارت إلى رسغه وهي تسأل كريم:

- ما هذا؟

فانتبه سليم إلى اقترابها وسؤالها، فوضع يده جانبًا ونظر إليها متسائلًا،

فأردفت رنيم:

- انظر يا كريم إلى يده!

اقترب منه كريم، وأمعن النظر في رسغه الأيمن، فرأى سوارًا ذهبيًّا منقوشًا يلتفُّ حول معصمه، يتكوَّن من قوسين من الذَّهب، تُرَصِّعُهما بعضُ أحجارِ الفيروز، وتضمُّهما معًا عينٌ غريبةُ الشَّكلِ منحوتةٌ من حجرٍ أزرق!

رفع سليم يده إلى مستوى بصره، وأخذ يتأمَّل قليلًا في السوار الذهبي، ثم قال محاولًا أن يخلعه:

- إنه ضيِّق جدًّا. لا أستطيع خلعه!

فصاح كريم غاضبًا:

- ولماذا ارتديته أصلًا؟

فأجاب سليم مواصلًا محاولاته:

- رأيته بجوار أحد الجدران لمَّا دلفنا من باب (أبو الهول). أعجبني مظهره، فارتديته.

فقالت رنيم بحدَّة:

- أنت لا تتوقف أبدًا عن الأفعال الحمقاء. اجلس بعيدًا عنا. لا نريد أن نسمعَ منك شيئًا آخر.

نهض سليم ببطء، واتَّجه بخُطوات ثقيلة نحو الركن البعيد الذي كانت رنيم جالسةً فيه قبل قليل، وظلَّ يحاولُ خلع السوار الذهبي.

وقالت رنيم مخاطبةً كريم:

- أعصابي لا تتحمَّلُ كلَّ هذه الحماقات... بالرغم من ذكاء سليم، إلا أن اندفاعه يوقعه دائمًا في مشكلاتٍ لا حصرَ لها...

فأومأ إليها موافقًا، وقال:

- لا أنسى أبدًا ما فعله في ذلك اليوم الذي اندلع فيه حريق كيميائي بغرفة العلوم بالمدرسة، حين ألححنا على مدرس العلوم أن يُجري لنا تجربة تفاعل الصوديوم مع الماء، بالرغم من أن هذا التفاعل لم يكن مقرَّرًا علينا في المنهج، وذلك بعد أن أخبرَنا، أثناء شرحه أحد الدروس السابقة، أن الصوديوم يشتعل حين يلامس الماء، ويحدث انفجار كنتيجة لهذا التفاعل.

فقالت رنيم وهي تعدل نظارتها:

- أجل، أذكر ذلك اليوم... لقد أخرج الأستاذ من برطمان الصوديوم قطعةً ضخمةً، ووضعها بجوار الحوض، وأخذ يُجزِّئها، ولمَّا حاول أن يملأ الكوب الزجاجي بالمياه ليضع فيه قطعة صوديوم صغيرة، تعطل الصنبور فجأة، واندفعت المياه منه مثل النافورة لتغرق كل شيء، فدوَّت انفجارات متتابعة، وانبعثت الأدخنة السامة تملأ المكان، ففررنا جميعًا من الغرفة، ومعنا الأستاذ، بينما ظلَّ سليم في مكانه، وقررَّ أن يحمل بيديه برطمان الصوديوم المفتوح، والمياه تملأ الفصل، لكيلا تصل المياه إليه وتحدث كارثة في المدرسة. حمل البرطمان، وأحاطه بذراعيه وانحنى عليه لكيلا تلمسه أي قطرة، ثم سار نحو النافذة ببطء، والدخان السام يملأ المكان، وألقى البرطمان منها، واندفع يجري نحو باب الفصل، قبل أن يسقط على الأرض فاقدًا الوعي، بسبب اختناقه نتيجةً لحساسيته المزمنة.

فقال كريم:

- تصرف في غاية الشجاعة والنبل، ولكنه أيضًا شديد التهوُّر؛ وذلك لأن سليم لم ينتبه، وهو يلقي بالبرطمان، إلى أن النافذة تُطل على حديقة

المدرسة، التي كانت تُسقى في تلك اللحظة برشاش المياه. فما إن سقطت قطع الصوديوم في الطين المبلل، حتى تصاعدت الأبخرة السامَّة تملأ المربع السكني، واتسع نطاق الكارثة.

فهزَّت رنيم رأسها وهي تقول:

- كان يمكنه ببساطة أن يُخرج البرطمان من باب الفصل، وتنتهي المشكلة، لكن تهوره واندفاعه لا حدَّ لهما.

- أنت محقَّة يا رنيم. ولقد بلغ اليوم غايةَ التهوُّر والاندفاع، بدايةً من إقناعه لنا باجتياز الباب الذهبي إلى داخل تمثال (أبو الهول)، وانتهاءً بما حدث قبل قليل. كنت أظن أننا رأينا جميعًا نفس الأشياء، لكن اتَّضح أن سليم رأى، بل وارتدى، سوارًا ذهبيًّا لم يكن عند أيٍّ منَّا علمٌ بوجوده!

- لا عليك. أرجِّح أنه شيءٌ لا قيمةَ له ولا تأثير. المهم الآن أن نحاول الخروج من هنا بأي طريقة.

- هل لديكِ أي أفكار؟

- ألم تحضر معك الموبايل الذي أعطتك إياه والدتك منذ فترة لكي تطمئنَّ عليك بعد الخروج من المدرسة؟!

- بلى يا رنيم، لقد أحضرته معي. انتظري لحظةً.

وأخرج من جيبه الموبايل، ونظر قليلًا إلى شاشته الكبيرة المسطَّحة، فسألته رنيم في قلق:

- هل يعمل؟

لم يردَّ عليها. رفع الموبايل فوق مستوى رأسه، وتجوَّل في المكان يمينًا ويسارًا، قبل أن يخفض رأسه أخيرًا في يأس. فقالت رنيم:

- مثلما توقعت. الشبكة غير متوفرة!

فقال كريم:

- للأسف... هل لديكِ أفكار أخرى؟

فهزَّت رأسها في يأسٍ، فأردف:

- إذًا، ما العمل؟

أخذت رنيم تفكر قليلًا قبل أن تشير بَغتةً إلى حقيبة ظهره السوداء، وتطلب منه أن يُحضرها ليبحثا فيها عن أيِّ شيءٍ قد يمكِّنهما من الخروج.

التقط كريم الحقيبة وفتحها، وأخذا يبحثان معًا. لم يجدا فيها إلا زجاجة مياه، وبعض علب البسكويت، ونايًا قصيرًا جدًّا يصطحبه معه دائمًا ليعزف عليه في أوقات فراغه.

أشارت رنيم إلى الناي وقالت:

- قد يكون هذا هو مفتاح خروجنا.

التقط كريم الناي، وأخذ ينقل نظره بينها وبينه في تعجُّب، وسألها:

- كيف يا رنيم؟ كيف سنستخدم الناي لنتمكَّن من الخروج؟

فقالت له مبتسمةً:

- هل تذكر اليوم الذي طلبتَ فيه منِّي أن أحضر معك في جماعة الموسيقى، بالرغم من أنني لا أجيد العزف على أي آلة موسيقية، ولا أعرف أصلًا الفرق بين النوار والبلانش؟

هز كريم رأسه، وكاد ينفجر ضاحكًا، رغم قسوة الموقف الذي يواجهانه، إلا أن الذكرى التي تخايلت لعقله في تلك اللحظة، ردَّته في لحظةٍ إلى أحد أطرف المواقف التي جمعَته برنيم، وأكثرها إحراجًا أيضًا. فقد ألحَّ عليها

في ذلك اليوم لكي يصطحبها إلى غرفة الموسيقى، أثناء الفسحة، لحضور اجتماع الطلبة المشاركين في جماعة الموسيقى مع المدرِّسة المسئولة، فمانعَت في البداية، قبل أن تَلِين؛ بسبب إقناعه إياها بأنه سوف يجد لها مخرجًا من أي موقف محرج قد تتعرَّض له. ولم يكن يعلم في تلك اللحظة أن الإحراج سوف يكون من نصيبه هو!

كان ذلك هو الاجتماع الأول في السنة بين الطلبة ومدرِّسة الموسيقى التي عُيِّنت حديثًا، وبدا لكريم من الوهلة الأولى أن أسلوبها يخالف أساليب كل من سبقوها. كان مغترًّا بالطبع بقدرته على العزف على الناي، وكان يصطحب الناي القصير الذي اشتراه له والده من محطة الرمل قبل سنتين، فلم يفزع حين علم أن المدرِّسة سوف تختبر المشاركين بأن تجعلهم يعزفون على آلاتهم بمصاحبة عزفها هي على الأورج، لكي تقيِّم مقدرتهم على ضبط النغمات وإخراجها بشكل سليم. وحين جاء دور رنيم، نظرت إليه في وجلٍ، فلم يعرف كيف يتصرف، لكنها استطاعت بذكائها أن تتدارك الموقف، فالتقطت المثلث المعدني، ولم تجد مشقَّة في ضبط الإيقاع مع عزف المدرِّسة. وجاء بعدها دور سليم، فمشى بثقة صوب الكرسي المواجه للمدرِّسة، وقالت له أنها ستعزف لحن نشيد (بلادي)، فجلس أمامها، وبدآ يعزفان في نفس اللحظة، فظهر نشاز الناي بشكل واضح! ضحك زملاؤه، واحمرَّ وجهه خجلًا، بينما توقفت المدرِّسة عن العزف، وقالت له مبتسمةً أنه يعزف على الناي غير المناسب، وأنه يحسن به أن يُحضِر ناي (الدوكاه)، لأن الناي الخاص به قصير جدًّا، وطبقته حادَّة.

تذكر كريم كلَّ هذا في لحظةٍ، ففهم ما تقصده، وقالت له حين لاحظت

ابتسامته:

- تذكر طبعًا معلومة أن الناي كلَّما قَصُرَ، كان صوتُه أكثرَ حدةً. يمكننا أن نوصِلَ استغاثتَنا إلى أبعد مكان إذا نفخت فيه وأخرجت أكثر النغمات حدَّة بجوار الباب، وسيتمكَّن الناس في الخارج من التقاط استغاثتنا.

فقال كريم في حماس:

- فكرة عبقرية. يجب أن ننفِّذها حالًا.

واقتربا معًا من الباب الذهبي. وضع كريم الناي على شفتيه، وبدأ ينفخ بقوَّة لتخرج أحدُّ النغمات، وكانت عينا رنيم متعلقتين بالناي، متمنيةً أن تفلح هذه الطريقة في لفت انتباهِ أيٍّ من الموجودين بالخارج.

وبينما هما بجوار الباب، كان سليم يحاول خَلْعَ السوار الذهبي، وزادته النغمات الحادَّة توتُّرًا، إلى أن وصل إلى غاية يأسه، فصدم رسغه بالأرض في عنف، فدوَّى في المكان صوتٌ هائلٌ يشبه انهيار الصخور وزئير الأسود واندفاع مياه الشلالات!

توقَّف كريم عن العزف خائفًا، وانكمش هو ورنيم بجوار الباب وهما ينظران إلى الغبار وهو يثور في جميع أرجاء المكان، ويدور مثل الإعصار، والأحجار الحمراء التي تملأ الجدران تومض بعشوائية، وأحس الأصدقاء الثلاثة أن تمثال (أبو الهول) على وشك أن ينهار فوق رءوسهم!

هدأ الصوت تدريجيًّا، بعد دقائق استولى فيها الرعب على قلوب ثلاثتهم، إلى أن ساد الصمت، لكن الغبار ظل يعيق الرؤية، فهمس كريم وهو يتابع خفوت ومضات الأحجار الحمراء بإزائه:

- هل أثَّر صوت الناي المرتفع في تمثال (أبو الهول)؟! لقد رأيت في بعض

الأفلام أن الأصوات العالية قد تسبب انهيارًا جليديًّا، ولا أعرف هل هذا صحيح أم لا! ولكن، هل من الممكن أن يؤثر الصوت المرتفع في بناء حجري ضخم مثل هذا؟!

فقالت رنيم:

- لا أدري. لكن أظن أن التمثال لا يزال على حالته وإلا لامتلأت الأرض بالأحجار.

واستطردت في قلق:

- أين سليم؟

- لعلَّه لا يزال في نفس المكان الذي تركَنا وذهب إليه.

فقالت رنيم:

- أنا لا أتبيَّن شيئًا. الغبار يملأ الهواء.

وأخذت تنادي سليم مرَّةً بعد مرَّةٍ، فلم يسمعا أيَّ صوت. فشاركها كريم في النداء، لكن الصمت ظلَّ مطبقًا!

انتظرا دقائقَ قليلةً إلى أن هدأ الغبار، فلمحا سليم جالسًا يبكي في ركن بعيد. اقتربا منه سريعًا، ومال عليه كريم قائلًا:

- هل أنت بخير يا سليم؟

فتمتم مرتعدًا:

- أنا... أنا...

فسألته رنيم:

- ماذا بك؟

فقال بارتباك:

- لـ.. لا شيء. لكن... أنا... أنا خائف.

فقال كريم مُطَمئِنًا:

- لا تخف... لقد مرَّ الأمر بسلام. الأصوات هدأت وكذلك الغبار. لا أعرف سبب حدوث هذه الأصوات، ولكن لا أظنُّ أن أمرًا خطيرًا قد حدث، وإلا لَمَا كنت أمامك الآن أتحدَّث معك... اطمئن.

فقال سليم:

- أنا خائف يا كريم.

فقالت رنيم وهي تجذبه من يده:

- لا تكن جبانًا و... ما هذا؟!

ونظرت مدققةً في يده قبل أن تقول مندهشة:

- أين السوار يا سليم؟

فسحب سليم يده بقوة وقال:

- أنا خائفٌ يا رنيم. يبدو أنني أفسدتُ كلَّ شيءٍ مرةً أخرى.

فقالت رنيم بتردُّد:

- لكن... لكن هذا هو ما أردتَه يا سليم؛ أن تتخلَّص من السوار. وهأنتذا تمكَّنتَ من خلعه. كيف استطعتَ ذلك؟

فقال سليم:

- أنا آسف يا رنيم. يبدو أن الغبارَ الذي ملأ المكانَ، والصوتَ العاليَ الذي رجَّ الجدران، ليسا علامةً على اقتراب تحرُّرِنا من التمثال، وليسا نتيجةً لعزف كريم على الناي. أظن... أظن أنني أنا السبب فيما حدث.

فصاح كريم غاضبًا:

- ألن تكفَّ عن أفعالك الحمقاء أبدًا؟! ماذا فعلتَ لكي يحدث هذا الأمر؟

نظر سليم إلى الأرض في ندم وهو يقول:

- حاولتُ أن أخلع السوار الذهبي بكل قوة، لشعوري بأنني المذنب في كلِّ ما وصلنا إليه. تعالى صوت الناي، فازددتُ توترًا، وفي النهاية... في النهاية ضربتُ بمعصمي -الذي يلتفُّ حوله السوار- هذه الأرضَ، و...

ولم يكمل، فهتفت رنيم:

- وماذا حدث بعد هذا؟ انطق.

ظل سليم صامتًا، وجاءها الجوابُ من مكانٍ آخرَ لم تتوقَّعه، بطريقةٍ جمَّدت الدم في عروقها!

الفصل الثاني

اللعنة

كان الصوت الذي ملأ المكان عميقًا مخيفًا. بدا كما لو كان ينبعث من أعلى ومن أسفل ومن كل الجدران في نفس الوقت، على نحوٍ ذكَّر الأصدقاء الثلاثة بالسينما، وإن كان أشدَّ قوَّةً وتأثيرًا وإحاطةً بهم!

هتف الصوت، بعدَ عدَّةِ كلماتٍ بلغةٍ غير مفهومة، مليئة بأحرف الحاء والخاء والعين:

- لقد دنَّستم (برْ حُرّ)، وحطَّمتم سوار الإله العظيم وعينه المقدَّسة.

وببطء، بدأ رجل ضخم، يبلغ طوله نحو مترين، يقترب منهم، ملتفًّا بثوب أبيض، وعلى رأسه خوذة ذهبية، في مقدمتها تمثال صغير لرأس الكوبرا، ويده اليمنى قابضة على رمح برونزي يماثله في الطول.

نظر إليه الأصدقاء في رعب، وحاول كريم أن يستجمع شجاعته، فسأله:

- مـ.. من أنت؟ وماذا تريد؟

فتوقَّف الرجل، ونظر إليهم مليًّا، قبل أن يقول:

- أنا حارس (برْ حُرّ).

فسألته رنيم، بعد أن تراجعت خطوتين:

- هل تقصد أنك حارس تمثال (أبو الهول)؟

فأجابها ببطء:

- هذا هو الاسم الذي حرَّفتم به (برْ حُرّ)، مثلما حرَّفتم وأفسدتم كلَّ شيءٍ جميلٍ في هذا العالم. (برْ) معناها بلغتنا المقدَّسة (بَيْت)، و(حُرّ) هو الإله (حورس)، الذي رمزنا إليه بالصقر؛ والحُرُّ من أسماء الصقر في لغتكم العربية بالمناسبة! (حُرّ)... (حورس)... الإله العظيم الذي كانت عينُه اليمنى هي الشمس وعينه اليسرى هي القمر. الإله (حورس) الذي حارب الشرير (ست)، وتغلَّب عليه، بعد أن فقد في المعركة عينه... عينه التي تحوَّلَتْ إلى تميمةٍ من حجر (الأزوريت) الأزرق، لها قدراتٌ خارقةٌ ساعدتنا كثيرًا في الطبِّ والحساب. (ومخاطبًا سليم) تميمة مقدَّسة لم تتورَّع أنت عن تدميرِها بهمجية، مثلما تعوَّد أجدادُكم وآباؤكم أن يدمِّروا كل شيء جميل في هذا العالم.

فقال سليم متلعثمًا:

- أ... أنا... أنا...

فصاح فيه الحارس:

- أنتَ ماذا؟ هل تنكر أنك دمَّرتَ العينَ المقدَّسة؟

- لا... ولكن...

- لكن ماذا؟

- لقد كنتُ متوتِّرًا وخائفًا من أن نظلَّ داخلَ التمثال دون أن ينقذَنا أحدٌ. حاولنا في البداية أن ندفع البابَ الذهبيَّ لنخرج، فلم نستطِع. عَزَف كريم على الناي فلم ينتبه إلينا أحد. حاولتُ أن أخلع السوار بكل الطرق بسبب إطباقه الشديد على معصمي، فحدث ما حدث.

فهزَّ الحارس رأسه في أسف وهو يقول:

- أيها البائس! لقد فقدتَ أهمَّ شيءٍ لمسته يدك الفانية في حياتك. كان بوسعك أن تفعل كلَّ ما تريده، ما دمتَ مرتديًا هذا السوار... أن تفتحَ البابَ الذهبيَّ... أن تطيرَ بجناحينِ من ريش الصَّقر إلى أن تصلَ إلى بيتك... أن تتنفسَ تحتَ الماءِ، وأن تذهبَ إلى أيِّ مكانٍ في العالم بلمح البصر، وأن تُحَوِّلَ أيَّ مَعْدِنٍ إلى ذهبٍ... لقد فقدتم أيها البائسون وسيلةَ خروجكم.

فسأله كريم في قلق:

- هل تقصِد أن السوار كان مِفتاح الخروج؟

فأجابه الحارس:

- هذا بالضبط ما قلته. وهو ليس مفتاحًا فحسب، بل هو السبيل لاكتسابِ قدراتٍ خارقةٍ، تُمَكِّن الإنسانَ من فعلِ أيِّ شيءٍ. ما إن يرتديه شخصٌ ما، حتى تُنفخ رُوح الإله (حورس) في أنفه، ويوهَب قوَّته... وعلامةُ اكتسابِ القدرةِ الخارقةِ، هي العطس.

فنظر كريم ورنيم إلى سليم في غيظ، فهتف سليم مندفعًا كعادته دون أن يُفكر:

- هل تمزح معنا؟! يا لها من حيلةٍ رديئةٍ! ألم تجد مصدرًا أفضل من فيلم عربي قديم لكي تَحبُك هذه الخدعة؟! نعم، لقد شاهدت فيلم (أرض النفاق)، ورأيت كيف كان البطل يتحوَّل من حال إلى حال بعد أن يعطس. فمن الأفضل أن تنزع هذه الملابس، وترينا مكان الكاميرا الخفية، لأنني بدأت أملُّ من هذه الحيلة.

لم يُجِبه الحارس، وأخذ ينظر إليه مليًّا، وطال الصمت، بينما كان كريم ورنيم ينقِّلان نظرهما بين الحارس وسليم في رعب، غير متصورين قدر

الحماقة التي اندفع بها صديقهما في هذا الموقف العصيب! تسارعت أنفاسهما، وأحسَّ سليم، بعد أن طال الصمت، أنه قد أقدم على خطوة غير موفقة، فبدأ يقول متلعثمًا:

- لكن... لكنني... لعلِّي... أظن أنني عطست... أجل، عطست بسبب وجود الغبار. أجل، إن أنفي شديد الحساسية! وربما...

فقاطعته رنيم محاولةً إصلاح الموقف:

- لا تُنكِرْ يا سليم. لقد عطستَ في المرة الأولى قبل أن يثور الغبارُ من حولك. كنتَ تفتح فمَك وتغلقه مثل السمكة قبل أن تعطس، وليس بشكلٍ فجائيٍّ كما يحدث حين تشمُّ الغبار! لا شك أن ما حدث كان بسبب ارتدائك للسوار.

فهزَّ سليم رأسه في أسف، وهمَّ بأن يقول شيئًا ما، لكن الحارس لم يمهله؛ إذ دقَّ الأرض برمحه، فالتمعت الأحجار الياقوتية فجأةً خلف سليم، واندفع إلى الخلف بقوة كما لو كان شيءٌ ما يجذبه، وفي أقل من لحظة، أصبح ظهره لاصقًا في الحائط، مرتفعًا عن الأرض نحو نصف متر. فأخذ يصرخ، ويعتذر قائلًا:

- حسنًا. أنا آسف. أنا آسف. لم أكن أعلم. أنا المخطئ. أرجوك أن تصفح عنا، وأن تُخرجَنا من هذا المكان. أرجوك.

فقال الحارس في حزم:

- لقد دنَّستم تمثال (برْحُرّ)، وتستحقون العقاب. ولم تكتفوا بذلك وحسب، بل دمَّرتم عين (حورس) المقدَّسة، وأنتم بذلك لا تختلفون عن آبائكم وأجدادكم الذين أفسدوا هذا الكوكب، ونشروا فيه التلوث، وتسببوا في

انقراضِ كثيرٍ من المخلوقات. لو كنتم اكتفيتم بالدخول إلى تمثال (برْ حُرّ) فقط، لصفحتُ عنكم، ولتركتكم تخرجون بعد أن أمحوَ ذاكرتكم، لكيلا يُدنِّس آباؤكم هذا المكان المقدَّس حين يعرفون أنكم كنتم فيه. لكنكم حطَّمتم للأسف عين (حورس) -وسيلة خروجكم- بعد أن دنَّستم المكان، وإن لهذا ثمنًا باهظًا يجب أن يُدفَع.

فقال كريم معترضًا:

- عن أي تدنيسٍ تتحدَّث. إن الباب الذهبي لم يظهر لأحدٍ قبلَنا، ولقد استطعنا رؤيته بعد أن أشار إليه سليم، برغم أن كلَّ الصور التي رأيناها في حياتنا لـ (أبو الهول) لم تُظهر أيةَ أبوابٍ ذهبية. أنت من دعوتَنا إلى هذا المكان.

فقال الحارس:

- أخطأتَ التخمين. إن البابَ الذهبيَّ لا يظهر إلا مرةً كلَّ مائة سنة. ولا يدوم ظهوره إلا عشر دقائق، تمكنني من الخروج لكي أَطَّلِعَ على كل ما جرى في الكوكب خلال الأعوام المائة الماضية، والعودة قبل انقضاء الدقائق العَشر، لكيلا يلاحظه أحد أو يقتحمه. ولقد خرجتُ لكي أستطلع أحوال العالم، ولمَّا عدتُ كعادتي بعد نحو ثماني دقائق، وضعتُ سوار (بَر حُرّ) جانبًا، واستلقيتُ لكي أرتاح من جولتي، وفجأةً وجدتُكم تدلِفون إلى التمثال، ووجدت هذا المشاكس (وأشار إلى سليم) يلتقط السوار ويرتديه. فانتظرتُ في الظلام، أتأمَّلُكم، ولم أستطِعْ الاقترابَ منكم؛ لأنني ملتزمٌ بإطاعةِ كلِّ شخصٍ يرتدي سوار حورس، ولا أملك القوة التي تمكنني من نزعه من رُسغ من يرتديه، حتى وإن لم تُنفخ روح حورس في أنفه وتسبب له العطس. ولو

كنتم استخدمتم السوار لمغادرة المكان لمَا استطعت منعكم، برغم أن ما رأيتُه من فسادٍ بالخارج جعلني راغبًا في احتجازكم أطولَ فترةٍ ممكنة، لكي يشعر أهلُكم ببعضٍ ممَّا يذيقونه للكوكب من تلوُّثٍ ودمارٍ. انظروا...

وأشار إلى أحد الجدران برمحه، فتألقت الأحجار الحمراء، قبل أن تتشكَّل على الجدار صور ثلاثية الأبعاد تُظهِر تلوث البحار بمخلَّفات السفن، والتصحُّر في أفريقيا، وحرائق الغابات، والفيضانات المدمرة، والأعاصير، وجفاف البحيرات في جنوب أفريقيا، وذوبان الجليد في القطبين، والعوادم المنبعثة من السيارات والمصانع، وانقراض وحيد القرن الأبيض وغيره من الطيور والحيوانات، وأخيرًا صور لتسونامي الإسكندرية الذي حدث قبل ستة أشهر.

ثم أردف:

- هل رأيتم الدمار الذي ألحقه قومُكم بهذا الكوكب؟ وبرغم هذا كنتُ مستعدًّا للصفح عنكم. كما أن السوار حماكم، إلى أن حطَّمه هذا الغلام (وأشار إلى سليم المعلَّق على الجدار). والآن، بعد أن حطَّمتم وسيلة خروجكم، لن تتمكنوا من مفارقة هذا المكان إلا إذا تنازلتم عن شيءٍ ثمينٍ لديكم، جزاءَ تحطيمِكم عينَ (حورس)، وهي أثمن الأشياء.

أخذ الأصدقاء يتبادلون النظرات قليلًا في قلق. وببطء وتردُّد، اقترب كريم من الحارس ببطء، وهو يمدُّ يده بموبايله، وقال له في وجل:

- تفضَّلْ يا سيدي. هذا الموبايل هو أغلى شيءٍ معي. أرجو أن يكون كافيًا.

وظلَّت يده ممدودةً دون أن يأخذه منه الحارس، بينما نزعت رنيم الشال الأزرق عن عنقها، وهي تقول للحارس:

- وهذا الشال كانت جدتي قد أهدتني إياه قبل وفاتها، وطلبت مني ألا أتخلَّى عنه أبدًا. خذه، وأطلق سراحنا. أرجوك.

نظر إليهما الحارس، ثم التفت إلى سليم وقال له ساخرًا:

- وأنت، ألن تقدِّم لي أنت أيضًا شيئًا ثمينًا... كحذائكَ مثلًا!

فأطرق سليم، وفي عينيه غلالة من دموع. فنفض الحارس يديه باستخفاف وهو يقول:

- هل هذه الأشياء حقًّا هي أغلى وأثمن ما تملكون؟! إنكم تمزحون بلا ريب! لقد أصدرتُ حكمي عليكم.

وومضت الأحجار الياقوتية في المكان بشكل متتابع وسريع، وهو يقول ببطء مشيرًا إلى كريم:

- أنتَ سوف تفقدُ حاسَّةَ السمع.

ثم قال لرنيم:

- وسوف تفقدين أنتِ القدرةَ على الكلام.

وأخيرًا قال لسليم:

- وأنتَ ستفقدُ حاسَّةَ الإبصار.

فصرخ الأصدقاء في هلع... ووضع كريم يديه على أذنيه وأخذ يضرب عليهما بقوة دون أن يسمع شيئًا، بينما حاولت رنيم أن تعترض، فلم تصدر عنها إلا همهمات متقطِّعة، وسقط سليم عن الجدار الذي كان ملتصقًا به، فأوجعه السقوط، قبل أن ينهض ويدور في المكان خائفًا وهو يصيح:

- لا أرى شيئًا... لا أرى شيئًا!

وقال الحارس وهو يتراجع ببطء:

- سوف تخرجون وتعودون إلى أهلكم بعد أن دفعتم المقابل، ولن يستردَّ كلٌّ منكم ما فقده، إلا إذا استطعتم أن تمنعوا أيَّ شكلٍ من أشكال الفساد والدمار الذي ينشره قومكم في هذا العالم. وعندئذٍ سوف تلتئم عين (حورس) التي حطمتموها. وانتبهوا جيدًا. فلو علم أيُّ إنسانٍ بما حدث لكم داخل التمثال، فسوف تظلون كذلك دائمًا، (وأشار إلى رنيم) بلا نُطْقٍ، (وإلى كريم) وبلا سمعٍ، (وإلى سليم) وبلا بصر.

وثار الغبار فجأةً، فحال بين الحارس وبينهم، واشتدَّ وميض الأحجار الياقوتية، قبل أن يهوي الأصدقاء الثلاثة على الأرض فاقدين الوعي!

الفصل الثالث

هل جُنَّ الأطفال؟!

لم يكن سليم في تلك اللحظة قادرًا على أن يدرك أيَّ شيءٍ بشكل واضح؛ فهي المرة الأولى التي يتعامل فيها مع العالم بحاسَّة السمع والشم واللمس فقط!

كان يُفزعه جدًّا أن يفتح عينيه على اتساعِهما فلا يرى إلا ظلامًا كثيفًا، كما لو أن الكهرباء انقطعت عن العالم... بل إنه ليس ظلامًا... إنه شيء آخر لا يستطيع وصفه! إنه اللاشيء... حتى الظلام يحتاج إلى حاسَّة الإبصار لكي يدرك الإنسان أبعاده، أما هذا الذي يملأ عيني سليم، فشيء لا يعرفه!

في البداية، سمع صوتَ سيارات الإسعاف، ثم صوتَ النقَّالة، وبعد ذلك أبواق السيارات، وشمَّ رائحةَ العوادم، ثم سمع صريرَ عجلات الأسرَّة الطبية، وملأت أنفَه رائحةُ الكلور، ثم تعالى صوت خطوات الأقدام المسرعة، وأخيرًا أصوات الأطباء يتحدَّثون بمصطلحاتهم غير المفهومة داخل عنبر المرضى.

تذكَّر جدَّه الذي فقد بصره قبل وفاته بفترة. كان سليم حينئذٍ صغيرًا، ولم يكن يستوعب مثل هذه الأمور الجليلة على حقيقتها. هو على كل حال لا يزال صغيرًا -في الثالثة عشرة من عمره- إلا أن أمورًا مثل العاهات

والإعاقات والموت صارت أوضح له. كان جدُّه دائمًا ما يتحسَّس وجهه، حين كان يذهب مع والده لزيارته أثناء إقامته في منزل عمته، وذلك خلال تلك المرحلة الضبابية من ذكرياته، قبل أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية، فكان يحسبها لعبة، فيمد هو الآخر يديه، ويتحسَّس ملامح جده، فيغرق الجد في الضحك. هو الآن يدرك تمامًا لماذا اعتاد جدُّه فعل ذلك معه، ومع كل أطفال العائلة. ما أقسى ذلك الشعور؛ حين تتحول الأصابع إلى عيون! ثم تتحوَّل هذه العيون المستعارة لاحقًا إلى... تراب!

أحسَّ بغصَّة في حلقه، وترامت إلى أذنيه نفس الأصوات المختلطة، فهزَّ رأسه وهو يحاول أن يتنفَّس ببطءٍ لكي يتغلَّب على شعوره بالغثيان وانعدام الحيلة، إلى أن جاءه صوت مألوف. كان صوت والده يقول له في حنان:

- سليم... كيف حالُكَ الآنَ يا بُنَيّ؟

فأجابه بلهفة:

- أبي. الحمد لله لأنك هنا. لقد مرَّت علينا ساعات شديدة القسوة. أين كريم ورنيم؟ أنا قلقٌ عليهما.

فقال والده:

- اهدأ يا صغيري. ستطمئن عليهما بالتأكيد، ولكن دعني أولًا أطمئن على صحتك.

وفتح ذراعيه له. لم يكن سليم قادرًا على رؤية شيء، فقطَّب حاجبيه قليلًا لتعجُّبه من هنيهة الصمت غير المبرَّر، ولم يصدر عنه أي رد فعل آخر، فسأله والده في ارتياب:

- سليم، لماذا لا تعانقني؟ هل في جسمك أيُّ كسور؟

فقال سليم وقد استشفَّ مغزى صمت والده:

- لا يا أبي على الإطلاق، ولكن...

- ولكن ماذا؟! انهض من فراشِكَ لكي أعانقَك يا بطل. هيا صافحني بقوةٍ كما اعتدنا.

ومدَّ يده إليه، وظلَّت على هذه الحال، إلى أن بدأت أصابعه ترتجف.

- أين يدك يا أبي؟ أنا لا أراها!

فتجمَّدت ملامح الأب، وهو ينقل بصره بين يده الممدودة إلى ابنه، وعيني الصغير اللتين تحدِّقان في اتجاهٍ آخر. فقال بصوتٍ متهدِّج:

- بالله عليك يا ولدي، ليس هذا وقتَ مُزاح.

فقال سليم وهو يوشك أن يبكي:

- أنا لا أمزح يا أبي. أنا فعلًا لا أستطيع أن أراك. العالمُ بأكملِهِ غير ظاهر أمامي.

فأخرج الأب موبايله من جيبه بسرعة، وأضاء الفلاش، ووجَّهه إلى عيني سليم وهو يقول:

- حتى فلاش الموبايل الذي أوجِّهُه إلى عينيكَ مباشرةً؟! لا تراه؟!

فأومأ سليم، والدموع تتساقط من عينيه.

نهض الأب، وأخذ يتلفَّت حوله غير مصدِّق، ثم صاح:

- يا دكتور... يا دكتور.

وخرج من العنبر إلى الطرقة، وأخذ ينادي أحدَ الأطباء، والممرضات يعبرن الطرقة من جانبه، وعاملة النظافة، وبعض أهالي المرضى المتوترين، إلى أن جاء رجل متوسط القامة يرتدي البالطو الأبيض، ونظارةً ليس لها إطار،

وحول عنقه سماعة طبية، ونظر إليه في تساؤل، فقال الأب:

- لقد وصلتُ قبلَ قليلٍ إلى المستشفى، قادمًا من الإسكندرية، لأن المشرفين على الرحلة المدرسية أخبروني أن سليم ابني وصديقيه فقدوا الوعي بمنطقة الأهرامات. ولقد طلبتُ من موظف الاستقبال أن يدُلَّني على العنبر الذي يستقر فيه ابني سليم، ولمَّا دخلتُ لأطمئن عليه، فوجئتُ بأنه لا يرى شيئًا.

قال الطبيب بهدوء:

- لقد شرحتُ لك يا سيدي طبيعةَ الأمرِ قبلَ قليل.

فقال الأب مندهشًا:

- أنا؟ لا يا دكتور. لقد وصلتُ حالًا، ولا أعلم شيئًا غير ما أبلغني به مشرفو الرحلة المدرسية؛ أنهم وجدوا سليم وكريم ورنيم مُلْقَيْن بجانب تمثال (أبو الهول)، بعدَ ساعاتٍ من اختفائهم. انطلقتُ مباشرةً بسيارتي صوبَ القاهرة، وبحثتُ لدى وصولي إلى المستشفى عن أحد المشرفين، فلم أجد حتى الآن منهم أحدًا.

- أعتذر لكَ عن سوءِ فهمي. لقد حكيتُ ملابساتِ الأمرِ كاملةً بالفعل لوالد كريم ووالدة رنيم، وهما الآن في عنبر آخر مع ابنيهما برفقة المشرفين. لقد اكتملت الفحوصاتُ قبل قليل، واتَّضح لنا أن (كريم) فقد السمع، وأن (رنيم) فقدت النُّطْق، وأن (سليم) أصبح كفيفًا. وليس هناك أيُّ سببٍ عضويٍّ لهذا الأمر. أعتقدُ أنَّ السببَ نفسيٌّ؛ والخطوة القادمة هي العرض على طبيبٍ متخصصٍ في طب نفس الأطفال.

- هل الأمر خطير يا دكتور؟

فتنهَّد الطبيب وقال:
- الشفاء بيد الله. قد يكونون تعرَّضوا لصدمةٍ أدَّت إلى فقدانِهِمْ هذه الحواسَّ. لكنَّ العلاجَ النفسيَّ -على كلِّ حالٍ- قادرٌ بإذن الله على أن يتخطى بهم هذه المحنة. الخطوة الأولى في العلاج، أن يجتمعوا معًا في مكانٍ واحدٍ لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ، ولهذا سوف يتمُّ نقل الثلاثة حالًا إلى غرفةٍ في نهاية الممر، لن يشاركَهم فيها أحدٌ غيرهم، إلى أن يغادروا، وأرجو أن يظلوا معًا كذلك بعد عودتهم إلى الإسكندرية، لأسبوعٍ على الأقل. وسوف أعطيك رقم هاتف طبيب سكندري متخصِّص في معالجة الأطفال الذين يعانون مثل هذه الأعراض لكي تعرضهم عليه غدًا، وعسى الله أن يكتب لهم الشفاء.

بعد دقائق قليلة، نُقل سليم هو وصديقاه إلى الغرفة الموجودة بنهاية الممر. وكان سليم يفكر شاردًا في الحوار الذي ترامى إليه قبل دقائق بين والده والطبيب.
قاده والده والممرضة ببطء إلى فراش مجاور لفراشي صديقيه، وبقربه كومودينو عليه حقيبة كريم السوداء، وبعض الأدوية. ثم خرج والد سليم إلى الممر ليحدِّث والد كريم ووالدة رنيم في بعض الأمور، بعد أن رحل المشرفون على الرحلة لاطمئنانهم على أن الأطفال أصبحوا أخيرًا في أمانٍ مع أولياء أمورهم.
وما إن استقرَّ سليم على فراشه، حتى تساءل بصوت خافت:
- رنيم، كريم، هل أنتما بخير؟
فأصدرت رنيم همهمةً طويلة "امممممممممم"، وهي تضرب يد كريم

برفقٍ لتنبِّهَه. فقال لها كريم في ضيق:

- لماذا تضربينني يا رنيم؟ ماذا تريدين؟ أنا لا أسمَعُ أيَّ شيء! شعور بشع ألَّا أسمع حتى صوتي!

وأردف رافعًا صوته:

- رنيم... سليم!

ثم هزَّ رأسه في أسف وهو يقول:

- لا أسمع شيئًا على الإطلاق. أنا لا أعرف ماذا تقولون!

فقال سليم:

- رنيم، هل تسمعينني؟

فقالت بنبرةٍ مُثبِتة:

- امممممم.

- يبدو أن الحارس نفَّذَ ما قاله بالضبط. سلبني حاسة الإبصار، وأفقدَكِ يا رنيم القدرةَ على الكلام، وجعل كريم أصمَّ!

فقال كريم وهو ينظر إلى شِفاه سليم في شرود:

- أنا لا أستطيعُ أن أسمعَك، لكنني استنتجتُ ما إن وصلتُ إلى المستشفى أننا قد عوقبنا على ما فعلتَه يا سليم.

فقال سليم بنبرة ندم:

- لقد أخطأتُ. أعترف بأنني أخطأتُ. لكنَّنا الآن لا خِيارَ أمامنا. لا بد لنا من أن نفعل ما أمرنا به الحارس لكي نتخلَّص من هذه اللعنة.

فزفر كريم بضيق وهو يقول:

- لا أسمع شيئًا!

فقال سليم:
- ألم تقرئي يا رنيم في العام الماضي كتابًا عن التواصل بلغة الإشارة؟
فأومأت إليه وهي تقول:
- امممممم.
- إذًا، فلتترجمي كلامنا لكريم لكي يستطيع أن يشاركنا في التفكير في وسيلةٍ تعيدُنا إلى طبيعتِنا.
فنهضت رنيم من على السرير الطبي، وجلست أمام كريم، وأخذت تُترجم له بحركاتِ يديها ما قاله سليم. فضحك كريم وقال لها:
- ماذا تفعلين يا رنيم؟ أنا أعلَمُ أنكِ قرأتِ العامَ الماضيَ كتابًا عن لغةِ الإشارةِ، لكنني لم أقرأ هذا الكتاب!
واستطرد قائلًا:
- انتظري. سأدلُّكِ على طريقةٍ أفضل.

في تلك اللحظة، كان والد سليم، الأستاذ عادل، يقف خارج العنبر مع والد كريم، الدكتور محمود، ووالدة رنيم، الفنانة التشكيلية رولا توفيق. كان التوتر يملأ ملامحهم، وكانت والدة رنيم هي أكثرهم اضطرابًا، وظهر هذا من رأسها الذي يهتز يمينًا ويسارًا في غير تصديق، ويدها التي تعبث من حين لآخر بخصلات شعرها البنية الفاتحة التي ورثتها عنها رنيم. ولم يستطع أيٌّ منهم أن يتغلَّب على هذا الشعور بالقلق، ولا سيَّما بعد أن شرح والد كريم، وهو طبيب باطني، خطورة هذا الموقف. وأبدى كلٌّ منهما خوفه من أن يستمر الأطفال على هذه الحالة. وقالت رولا:

- لم أستطع أن أفهم من رنيم أيَّ شيء. كانت... كانت تهمهم خائفة، وترتجف وأنا أحتضنها. وحين حاولت أن أطمئنها بأن كل ما تعانيه سوف ينتهي قريبًا... بكت.

فقال الدكتور محمود مُطَمئنًا:

- هذه الحالة من المرجَّح فعلًا، كما قال الطبيب، أن تكون بسبب صدمة نفسية. وسمعة الطبيب النفسي، الذي أُوصِينا بأن نلجأ إليه، طيِّبة في الوسط الطبي، ولقد حضرت له من قبل محاضرةً في أحد مؤتمرات الطب النفسي التي أحرص على حضورها، للتداخل الشديد بين الطب النفسي والأمراض الباطنة، والذي لا ينتبه إليه كثير من الأطباء، فأعجبني جدًّا منهجه في البحث، وطريقته في عرض الأفكار.

فقال الأستاذ عادل في شرود كأنه لم يسمع شيئًا ممَّا قيل:

- لقد فقد والدي البصر قبل وفاته بثلاث سنوات، وكانت مرحلةً عصيبةً في حياة جميع أفراد الأسرة. كنا جميعًا نتوقَّع حدوث فاجعة، وخصوصًا مع معاناته من مضاعفات مرض السكري، ولكن لم نتوقَّع أن يفقد بصره. ومن العجيب أن والدي لم يحزن كثيرًا بسبب هذا الأمر. كان دائمًا ما يردِّد أن هذه منحة لا محنة، وأن الله أنعم عليه بذلك؛ لأن فقدان البصر أهون من بتر ساق؛ وذلك لأنه كان لا يزال قادرًا على الحركة. لم أتمكن وقتها من استيعاب تفضيله الحركة على الإبصار، ولكن هذا قد يكون مفهومًا، إذا قيس إلى مهنته التي أفنى فيها عمره... التدريس، والتي أعمل بها أنا أيضًا، وأعلم ما تستهلكه من طاقتنا في الوقوف لساعات على أقدامنا والحركة المستمرة والشرح المتعب، ولهذا أتفهَّم وجهة نظره. ولكن... ولكن ما

بال هذا الطفل الذي يستقبل حياته القادمة بمثل هذا الفاجعة، ويعاني في مستهل سنوات مراهقته، ما عاناه جدُّه في أواخر أيامه؟!

ربَّت الدكتور محمود على كتفه وقال له:

- سيتغلَّبون جميعًا على هذه المحنة... على هذه المنحة كما قلت. ولعلَّه خير. لقد أخبرني كريم قبل قليل أنه واثقٌ بأن هناك مخرجًا ممَّا هم فيه، والثقة في وجود علاج والتمسك بالأمل من شروط نجاح أي علاج نفسي.

تنهَّدت الفنانة رولا، وقالت بصدق:

- أتمنى أن يكون الأمر كذلك يا دكتور. أنت لا تعلم مقدار العبء الملقى على ظهري بسبب عمل زوجي في الإمارات، وانفرادي هاهنا بتربية رنيم وأخيها آسر. أرجو أن تُشفى هي وصديقاها قريبًا، وأن نتخلَّص جميعًا من هذا القلق.

أومآ إليها متفقين مع كل ما قالته، ونظر الأستاذ عادل إلى امرأةٍ تبكي في نهاية الطرقة، فامتلأ قلبه من جديد بالقلق والحزن والذكريات القديمة الموجِعة.

فتح كريم حقيبته السوداء، والتقط منها دفترًا صغيرًا، وقلم رصاص، وأعطاهما لرنيم وهو يقول:

- يمكنكِ أن تكتبي لي ما تريدان أن تتناقشا بشأنه، وسوف أبدي لكما رأيي ما إن أقرأ المكتوب. هذه الطريقة أسهل.

فتحت رنيم الدفتر، ودوَّنَت فيه بعضَ السطور، ثم أعطته لكريم، فبدأ يقرؤها، وما لبث أن قال:

- بالضبط... لا مفرَّ أمامنا من أن ننفِّذَ ما قاله الحارسُ لكي نعودَ إلى طبيعتِنا. يجبُ أن نضَعَ حدًّا للأمور التي يدمِّرُ بها البشر هذا الكوكب.

فقال سليم:

- ولا تنسَ أن هذا الموضوع ينبغي أن يظلَّ سرًّا بيننا.

فهمهمت رنيم، وكتبت بعض الكلمات في الدفتر، وأعطته لكريم، فقال:

- طبعًا، يجب أن يظلَّ سِرًّا. إذا علم أحدٌ بما حدث لنا داخل تمثال (أبو الهول)، فسوف أظلُّ أصمَّ بقية حياتي، وستظل رنيم خرساء، ولن تتمكَّن أنت من الإبصار مرة أخرى.

فقال سليم:

- وكيف سنستطيع كتمانَ السر، ونحن مقبِلُون غدًا على خطوةٍ غيرِ مُتوَقَّعة، اتَّفَقَ عليها أبي مع الطبيب قبل قليل؟

فقال كريم وهو يقرأ ما كتبته رنيم:

- ما الذي نحن مقبلون عليه غدًا؟ قل لي ما الذي سمعته بالضبط.

فقال سليم:

- سمعتُ أبي يتحدَّثُ مع الطبيب، ويستفسِرُ منه عن حالتنا، فرجَّح الطبيبُ أنَّ ما نحن فيه الآن راجِعٌ إلى صدمةٍ نفسيةٍ؛ لأن الفحوصات أثبتت أنه ليس هنالك أيُّ سببٍ عضويٍّ. ولذلك أعطى أبي رقم هاتف طبيب متخصِّص في طب نفس الأطفال ليعرضَنا عليه غدًا. وهذا الأمر سوف يُشَكِّلُ لنا تحديًا؛ لأن الطبيب سوف يسألنا عمَّا رأيناه، ويجب أن نمتنعَ تمامًا عن التصريح بما حدث لكيلا تستمرَّ اللعنة، وفي الوقت نفسه علينا أن نتفقَ على روايةٍ واحدةٍ نتخلَّص بها من إلحاح الطبيب، ونصرِف بها اهتمامَه وشكوكَه

بخصوص هذا الأمر.

فقال كريم بعد أن قرأ ما كتبته رنيم:

- أنت مُحِقٌّ يا سليم. يجب أن نتفقَ على ما سنقوله للطبيب لكيلا يرتاب. أنا أقترح أن نقول له إننا كنا نتجوَّل بجوار (أبو الهول)، واشتدَّت علينا حرارةُ الشمس، فأصيب سليم بضربة شمس، وفقد وعيه. وبينما كنت أنا ورنيم نحاول إفاقته، خرج علينا لصٌّ، وطلب منا أن نعطيه ما معنا من نقود، فأعطيناه إياها، لكنه خاف أن نبلغ عنه، فضربنا بعصا غليظةٍ كانت معه، وفقدنا الوعي بقرب سليم، و...

قاطعته رنيم بهمهمة غاضبة، ونزعت من يده الدفتر بقوة، وكتبت فيه بعض السطور، ثم أعطته إياه.

- رنيم كتبت أنها ترفض تمامًا كل ما أقوله!

فقال سليم:

- يستحيلُ أن ترفضَ رنيم. لو صرَّحنا بما لاقيناه، فسوف تستمرُّ معاناتُنا ما تبقَّى من حياتنا.

فأصدرت رنيم همهمةً معترضة، وقال كريم:

- أنا لا أسمعُك يا سليم، لكن رنيم -على كل حال- معترضة على الفكرة التي طرحتُها. أظن أنها ترفض أن نكذب على الطبيب، لأن الكذبَ كما تعلم سلوك سيئ، ولا ينبغي أن نبني رحلتنا إلى إنقاذ العالم -كما يريد حارس (أبو الهول) منا- على خطأ... ما بُنِيَ على خطأ فهو خطأ، كما أن من الحماقة أن نُصلِح الخطأ بخطأ آخر؛ وفي الوقتِ نفسِهِ، لا يمكننا أن نصرِّح بالحقيقة لكيلا نظلَّ على هذه الحالة ما تبقَّى من عمرنا.

فتساءل سليم:

- إذًا، ماذا تقترحين يا رنيم؟

أخذت رنيم الدفتر من كريم، وبدأت تكتب، فقال لها كريم:

- أرجو أن تتمكَّني من إيجاد الحل.

فقال سليم:

- إن رنيم هي أذكى مَن فِينا، وكم مِنْ مرَّةٍ ساعدَتْنا فيها على الفوز في المسابقاتِ الثقافيةِ المدرسيةِ التي يشاركُ فيها فريقُنا. أنا واثقٌ من أنها ستجِدُ طريقةً نتلافَى بها الكَذِبَ، وفي الوقتِ نفسِهِ لا نخبرُ الطبيبَ بما حدث لنا داخلَ التمثال.

وكانت رنيم قد انتهت من كتابة اقتراحها، فأعطت الدفتر لكريم، فبدأ يقرأ:

- كان الإمام أحمد بن حنبل يستضيف في بيته بعضًا من تلاميذه، وكان فيهم رجلٌ يُدعَى (المَرْوَزِيَّ)، ولم يكن ذلك الرجلُ يريدُ أن يعرفَ أحدٌ أنه عندَ أحمد بن حنبل، لكيلا يقطعَ عليهِ أحدٌ الدرسَ الذي يُلقيه الإمام. وبينما هم جالسون، إذ طُرِقَ البابُ، فنهض أحدُ تلاميذ أحمد بن حنبل ليفتحَه، فسأله الطارقُ: المَرْوَزِيُّ هنا؟! فوضع ذلك التلميذ إصبعيه في كفه، وقال: ليس المَرْوَزِيُّ هاهنا. فضحِك أحمد بن حنبل لذكائه؛ فقد فهم الطارق أن المَرْوَزِيَّ ليس في دار أحمد بن حنبل فانصرف، وقصد الذي فتح الباب أن المَرْوَزِيَّ ليس موجودًا داخلَ كفِّه، فنجا بذلك من الكذب.

ومخاطبًا سليم:

- ما رأيك؟

- فكرةٌ عبقريةٌ والله. هذا -على ما أذكر- يُسمَّى (الكلام بالمعاريض)، وسوفَ يُمَكِّننا من أن نتجنَّبَ الكذبَ بسهولة.

وقالت رنيم بنبرة موافقة:

- امممممم.

وقال كريم:

- هل لديك أفكار يا سليم؟

- نعم. أنت تذكرُ بالتأكيد أننا أُغمِيَ علينا بعد أن قرَّر الحارسُ معاقبتَنا.

وصمت هنيهةً بعد أن استوقفته رنيم بهمهمةٍ، فَهِمَ منها أنها تريده أن ينتظرها حتى تأخذ الدفتر من كريم وتشرع في الكتابة. وسرعان ما بدأت تكتب بسرعة بجوار كريم ليستطيعَ أن يتابع الكلام. فتابع سليم:

- وتذكرُ أيضًا أنَّ الطقسَ كان حارًّا في وقت الظهيرة، وأن الغبار كان يحاصرنا. ما سنفعله، هو أن نقولَ للطبيب إننا أغشي علينا في منطقة الأهرامات، ولم يستطِعْ أحدٌ من المشرفين أن يجدَنا؛ لأنني طلبتُ منكما أن ننفصلَ عن فوج الطلبة، والابتعاد عنه، والتجوُّل بجوار تمثال (أبو الهول). هذا ما حدث لنا. نحن بالفعل أغمي علينا. هذا ليس كذبًا. وأنا الذي قدتكم إلى هذه المشكلة. هذا هو عين الصدق. أما تفسير إغمائنا نحن الثلاثة معًا، فيقَعُ على عاتق الكبار. نحن سنقول الحقيقة، وليجتهدوا هم في التفسير كيفما يحلو لهم.

همهمت رنيم باستحسان، وقال كريم بعد أن أنهى القراءة:

- فكرةٌ ممتازةٌ يا صديقي. سوف ننجو من هذه المحنة إذا اتَّحَدْنا. لقد فقدتُ سمعي، لكنني أشعرُ بأنكما أذناي.

فقال سليم:

- وأنتما عيناي.

وكتبت رنيم شيئًا في الدفتر، ورفعته عاليًا، فقرأ كريم بصوتٍ عالٍ:

- ونحن لسانك يا رنيم.

واستطرد قائلًا:

- بعد أن ننتهيَ غدًا من زيارةِ الطبيب، سوف نجتمعُ معًا، ونفكر في طريقةٍ تُمَكِّنُنَا من منع الناس من تدمير هذا الكوكب، لكي تزولَ اللعنةُ، ونستردَّ الحواسَّ التي فقدناها.

فهمهمت رنيم بحماس، وقال سليم:

- سوف ننجَحُ يا صديقي بإذن الله. سوف ننجَح.

الفصل الرابع

في الإسكندرية

رجع الأصدقاء في نفس اليوم إلى الإسكندرية، برفقة آبائهم، في ساعة متأخرة من الليل، وكانوا مرهَقين جدًّا. اتجه كل منهم مع والده إلى منزله، على أن يجتمعوا في الغد ليذهبوا معًا إلى الطبيب النفسي الذي أشار به عليهم الدكتور في المستشفى.

لم يستطع أيٌّ من الأصدقاء الثلاثة أن ينام جيِّدًا في تلك الليلة. كان الأرق يمنع أجفانهم من أن تنطبق، وذكرى السجن الذي كانوا فيه كانت تطرق خيالهم دون توقُّف. ولعلَّ سليم كان أكثرهم خوفًا؛ فقد أخذ يلوم نفسه كثيرًا على ما فعله. لو كان أقلَّ فضولًا لما حدث لهم ما حدث، ولو كان أقلَّ اندفاعًا، لما عاقبه حارس (أبو الهول) بأن يُعلَّق على الحائط بهذه الطريقة المفزعة، ثم يفقد حاسَّة الإبصار.

وأخذت رنيم تتساءل في نفسها، وهي تتأمَّل النجوم الفسفورية المُلصَقة بسقف غرفتها وأعالي الجدران التي ينعكس عنها ضوء شديد الخفوت، تُرى هل ستنجح خطتهم، ويستطيعون مراوغة الطبيب النفسي، لكيلا تنكشف تفاصيل لعنتهم، ويظل لديهم الأمل الخافت في أن يتخلَّصوا يومًا ما منها، وتعود إليهم حواسُّهم التي لا تُقدَّر بثمن؟

وكان كريم هو أول من نام، ولكن متى؟! في الرابعة فجرًا، بعد أن سقط في الفجوة ما بين اليقظة والنعاس، وخُيِّل إليه أن الناي الذي عزف عليه قرب بوابة تمثال (أبو الهول) تحوَّل إلى مثقاب ضخم، ومكنهم من الهروب في اللحظة الأخيرة قبل أن تحلَّ عليهم اللعنة!

في اليوم التالي، وتحديدًا عصر ذلك اليوم، مرَّت الدقائق عند الطبيب بطيئةً. كان رجلًا في العقد السادس من عمره، يرتدي نظارة مستديرة، وفاجأهم بجلوسه أمامهم على أحد كراسي الأنتريه، لا وراء المكتب، كأنه يريد أن ينفي عن هذا اللقاء أي طابع رسمي. وقد أراد أن ينفرد بالأصدقاء الثلاثة دون آبائهم، ليستطيع أن يستفهم منهم عن ملابسات ما حدث لهم. كان الأصدقاء حريصين جدًّا، وهم يجيبون عن الأسئلة، مشافهةً وكتابةً، على ألا تخرج منهم أي معلومة قد تثير ارتياب الطبيب؛ وبالفعل، اقتنع الطبيب بروايتهم، وانصرفوا أخيرًا هم وآباؤهم، بعد أن أوصى الطبيب بأن يظلَّ ثلاثتهم معًا في نفس الحيِّز المكاني لمدة أسبوعين كاملين، دون أن يذهبوا إلى المدرسة، على أن يلتزموا بنوعين من الأدوية كتبهما لكلٍّ منهم في الروشتة الخاصَّة به. وأخذ رقم موبايل كريم، بعد أن أعطاه رقم موبايله الشخصي، لكي يتمكَّنوا من التواصل معه إذا اقتضت الحاجة؛ لأن كريم هو الوحيد، من بين الأصدقاء الثلاثة، الذي يمتلك موبايلًا.

وبعد أن فارقوا العيادة، نزلوا على الدَّرَج، وأعطوا الروشتات لوالد سليم، وظلَّ الأصدقاء معًا في بهو البناية، بينما انفصل آباؤهم عنهم، ووقفوا بالخارج، كما لو كانوا يريدون أن يتحدَّثوا عن شيءٍ ما، لا يريدون أن يعلم

به أبناؤهم. وبالفعل كان هذا سبب وقوفهم خارج البناية؛ فقد أعربت رولا عن عدم ارتياحها لقرار الطبيب أن يظلَّ أبناؤهم معًا في نفس المنزل؛ فهي لا تتحمَّل أن تمكث رنيم بعيدًا عنها، وتخشى أن يحدث لها أي مشكلة فتعجز عن التعبير بسبب فقدانها القدرة على الكلام، فطمأنها الأستاذ عادل، وقال لها إن الأولاد الثلاثة سيكونون في أيدٍ أمينةٍ في أي منزل يقع عليه اختيارهم. فتململت رولا، وهمَّت بأن تحدثهما عن التقارب الذي تخشاه بين كريم ورنيم، ولا سيَّما أن العلاقة بينهما قوية في المدرسة، وهي تخشى على ابنتها من مشاعر المُراهَقة، أو أي موقف محرج آخر قد تتعرَّض له إن وقع الاختيار على منزل غير منزلها، وخاصةً أن ابنتها في أوائل مرحلة البلوغ، ولا بد أن تجد من يساندها إذا مرضت... إلا أنها تراجعت؛ فأخلاق كريم تشهد بحسن تربيته، كما أن سلوكه الذي لا تشوبه شائبة أهَّله لأن يحصل على شهادة الطالب المثالي على مستوى المدرسة لعامين متتاليين، ولا تظن أن أحدًا من الآباء والأمهات سوف يُقصِّر إن احتاجت رنيم إلى أي رعاية. وبالرغم من اطمئنانها، وجدت نفسها، حين عرض الأستاذ عادل أن يستقرَّ الأطفال في منزله، وجدت نفسها تتساءل عن عدد الغرف في المنزل. فابتسم الأستاذ عادل، وقد فهم مرادها، وقال لها إن سليم طفل وحيد؛ إذ لم تنجب زوجته غيره؛ لأنها ابتليت بورم في الرحم، فاضطرت لاستئصاله، بعد أن وُلِد سليم بسنتين. وأخبرهما أن منزله يتألف من ثلاث غرف، ولذلك سوف تحظى رنيم وقت النوم بغرفة مستقلَّة، كما أن والدة سليم سوف ترعى ثلاثتهم؛ فهي تعشق الأطفال، وكانت تتمنَّى أن يكون لسليم أخ وأخت، لولا أن شاء القدر غير ذلك... على أن كريم ورنيم ليسا

مجرد صديقين لسليم... بل هما أقرب إلى سليم من الإخوة.
وبعد أن أتمَّ الآباء حوارهم، واتفقوا على مكان إقامة الأولاد، بمنزل الأستاذ عادل، انصرفت رولا والدكتور محمود، بعد أن أعطى كلٌّ منهما ولدَه مصروفَ الأسبوعين، وأخبراهما بأنهما سيُحضران إلى منزل الأستاذ عادل بعد قليلٍ ثيابهما ومتعلقاتهما الشخصية التي سيحتاجان إليها خلال الأسبوعين. وسرعان ما كان الأصدقاء جميعًا في سيارة الأستاذ عادل متَّجهين إلى منزل سليم.

كانت غرفة سليم واسعة، ونافذتها تُطِلُّ على جانبٍ من البحر... كورنيش الإبراهيمية بالتحديد، الذي كان قبل ستة أشهر في حالة يُرثى لها بسبب تسونامي الإسكندرية، الذي استطاع أن يزاحم أخبار الحروب المستعرة في العالم ليومين كاملين، وأن يحتلَّ الصدارة في القنوات الإخبارية، وسرعان ما أصبح ترينداً، ووسيلة للتندُّر، ثم نَسِيَه الناس، برغم المعاناة التي تسبَّب فيها لبعض سكان حي (بحري)، والتي لا يعلم بها إلا أصحابهم وأقاربهم الذين يتردَّدون عليهم في ساحة الإيواء التي خصصتها الدولة لهم، بعد أن وعدتهم في البداية بتعويضهم عن فقد مساكنهم، ثم تراخى العمل على تحقيق هذا الوعد، ولا سيما مع التعتيم الإعلامي الذي منع الناس من التفاعل مع معاناتهم ومساندتهم في محنتهم!
في تلك اللحظة، كانت الشمس قد غربت، ورياح الخريف المُنعِشة تؤرجح الستار أمام عيني رنيم، التي كانت جالسةً على المقعد المجاور للنافذة ترتشف من كوب عصير المانجو، بينما كان كريم جالسًا على أحد

الفراشين، ينقل بصره بين المكتبة الصغيرة المليئة بالمجلات العلمية وقصص الأطفال، وبوسترات مجلتَيْ (ناشيونال جيوغرافيك) و (ميكي) التي تملأ الجدران، وكان بجواره كومودينو عليه بعض أغراض سليم، بالإضافة إلى كوب عصير مانجو فارغ، وبجوار الكومودينو مكتب عليه لاب توب وبعض الكتب المدرسية والدفاتر... وكان كلا الصديقين في انتظار سليم، الذي اصطحبه والده لأمرٍ ما قبل نحو ساعة، كان أبواهما خلالها قد أحضرا إليهما حقيبتيهما.

وبعد أن نظَّم كلٌّ منهما أغراضه، وجلسا في الغرفة يشربان عصير المانجو الذي قدَّمته لهما والدة سليم، سمعت رنيم صوت طرقات على الباب، فأشارت إليه بذراعها لكي تنبِّه كريم، فنظر إليه وهو يُفتَح، ورأى سليم يدلِف منه، وفي يده اليمنى عصا بيضاء يحرِّكُها يمينًا ويسارًا. وما إن دخل حتى التفت مخاطبًا أباه:

- أشكرك يا أبي. سأتمكَّنُ من معرفةِ طريقي داخلَ حجرتي. أنا أحفظها كظاهر يدي!

فأغلق والده الباب، وواصل هو طريقه في الغرفة مسترشدًا بالعصا. لكنَّ كريم ورنيم أسرعا إليه، وساعداه على الجلوس على الفراش الآخر، ثم استقرَّ كلٌّ منهما في مكانه.

- أشكركما يا أعز الأصدقاء.

فنظر كريم في الدفتر، الذي كتبت له فيه رنيم ما قاله سليم، فقال له:

- لا تشكرنا يا سليم، هذا واجبنا. ألم نتفق على أننا عيناك؟

ابتسم سليم، فأردف صديقه:

- حمد الله على السلامة. لماذا طلب منك والدك أن تذهب معه قبل ساعة؟
- لكي تراني عمتي التي تقيم في الطابق الخامس... فقد أرادت أن تطمئنَّ عليَّ، فاصطحبني إليها أبي، وجلستُ معها قليلًا، وأخبرتُها بما أخبرتُ به الطبيب، وبدا لي من صوتِها أنها قلقة جدًّا، وظنَّت أن الأمرَ شديدُ الخطورة، لأنَّ الطبيبَ أوصى بأنْ نقيمَ نحن الثلاثة معًا في نفس المكان، طوال أسبوعين، وألَّا نغادر المنزل طوال فترة تلقِّي العلاج، حتى إلى المدرسة. لكنني طمأنتُها، وقلتُ لها إن الأمر سوف يعود إلى ما كان عليه بإذن الله. فأعطتني عصا جدِّي، التي كان يتجوَّل بها في المنزل قبل وفاته.

واستطرد مغيِّرًا مجرى الحديث:

- وأنت يا كريم... هل أنهيت كوب العصير؟
- بالطبع... إنه ألذ عصير مانجو شربته في حياتي. أشكرك جزيلًا يا صديقي.
- لا شكر على واجب يا كريم. وما دام العصير أعجبك، فسوف أطلب من والدتي أن تقدِّمَه لكما أربع مرات في اليوم.

فقالت رنيم بنبرة اعتراض:

- امممممم.

فقال كريم ضاحكًا:

- ليس إلى هذه الدرجة. مرة واحدة تكفي يا صديقي. إن الإسراف في أي شيءٍ مُضِر. هل نسِيت؟
- طبعًا، أنت محِقٌّ. كنت أمازِحُك فحسب.
- كنت واثقًا من هذا... و... آه. نسيت. لقد اتصل بي والدي وأنت عند عمتك، وردَّت عليه رنيم، وكتبت لي أنه قال لها أننا يجب أن نتناول العلاج

الذي كتبه لنا الطبيب بانتظام.

- لقد قال لي والدي ذلك أيضًا.

فقال كريم بنبرةٍ قاطعة:

- لكننا لن نتناول شيئًا من هذه الأقراص.

فهمهمت رنيم موافقةً، وقال سليم:

- بالطبع يا كريم؛ فنحن نعلم جيدًا أن ما أصابنا لن يخلِّصَنا منه أيُّ دواء. الحلُّ الوحيدُ هو تنفيذ ما قاله حارس (أبو الهول).

واستطرد قائلًا:

- والآن، ينبغي لنا أن نفكرَ في وسيلةٍ تمكننا من منع البشر من تدمير هذا العالم لكي نعودَ إلى طبيعتِنا.

- أنت محق يا سليم. يجب أن نفكر سريعًا في حلٍّ لنتخلَّص من هذا العقاب البشع.

- علينا أولًا أن نحصُرَ مظاهرِ الفساد التي سادت هذا العالم. لقد قرأتُ كثيرًا من الموضوعات عن الأخطار التي تُهَدِّدُ كوكبَ الأرض، في أعداد مجلة (ناشيونال جيوغرافيك).

فهمهمت رنيم مستحسنةً:

- امممممم.

وقال كريم:

- خطوة ممتازة.

فقال سليم في حزن:

- كنت أتمنَّى لو كنت أستطيع أن أقرأها لكم.

فقال كريم مواسيًا بعد أن قرأ ما كتبته رنيم:

- لا تقلق يا صديقي. سوف أُحضِرُ المجلَّات حالًا وأتصفَّحُها لأخبرَكما بما فيها.

ونهض متَّجهًا نحو المكتبة الصغيرة التي كان يتأمَّلها قبل قليل، والتقط بعض أعداد مجلة (ناشيونال جيوغرافيك) من الرفّ الأوسط، وعاد إلى مقعده، وشرع في القراءة.

وقال سليم لرنيم:

- الحمد لله يا رنيم. لقد كنتُ خائفًا جدًّا من زيارةِ الطبيب. لكنَّ الدقائق التي قضيناها في غرفة الكشف مرَّتْ بسلامٍ والحمد لله. كنتُ أحسبُ أنه سوف يرتاب في ما سنحكيه له، لكنه كان لطِيفًا ومتفهِّمًا، ولم يشكَّ فينا ولو لحظةً واحدةً. الحمد لله. حقًّا، إن الصِّدقَ يُنجي.

فهمهمت متفقةً معه، فأردف:

- ومن حسن حظنا أنَّ الطبيبَ طلب من آبائنا أن نقيم معًا لمدة أسبوعين. وقال أنَّ هذا سيساعدُنا على الشفاء. وهو مُحِقٌّ في هذا. سوف نفكر -طالما نحن معًا- في طريقةٍ نمنع بها الناسَ من تدمير العالم، وهذه هي الطريقة الوحيدة للخلاص.

هزت رأسها موافقة، فتابع:

- وأيضًا حين نـ..

لكن كريم قاطعه قائلًا:

- أخيرًا استطعتُ أن أكتشف أخطرَ ما يُهَدِّدُ كوكب الأرض.

- ماذا؟

- ليس شيئًا واحدًا للأسف. هنالك مجموعةٌ من المشكلات.

- ما هي؟

- الزيادة السكانية... الاحتباس الحراري الناتج عن انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون، بسبب الاعتماد على مصادر الطاقة غير النظيفة مثل الوقود الأحفوري... تلويث الأنهار والبحار بمخلفات الصرف وكيماويات المصانع، وما يؤدي إليه ذلك من تدمير البيئة الطبيعية لكثيرٍ من الكائنات، فتواجه خطر الانقراض... الحروب المنتشرة في العالم.

- أحسنتَ يا كريم. لقد استطعتَ بالفعل إحصاءَ المشاكل الكبرى التي تُهَدِّد العالم.

وصمتا هنيهةً، فبدأت رنيم تكتب بعض السطور في الدفتر، ولما انتهت، أعطته لكريم، فقال:

- تقول رنيم إن هذه المشكلات مردُّها إلى شيئين.

فسألها سليم:

- ما هما يا رنيم؟

فكتبت كلمةً واحدةً في الدفتر، ورفعته أمام كريم، فقرأ:

- الجهل.

- امممممم.

فقال سليم:

- إنه فعلًا الجهل يا رنيم. لو علم الناسُ أنَّ تصرُّفاتِهم الخاطئةَ تقود الكوكب إلى الدمار، وتُهلِكُ الكائناتِ الحيةَ، بل وتهدِّد وجودهم هم أنفسهم، لتوقَّفوا فورًا عن فعلِها.

وتساءل كريم:

- ولكن ما هو الشيء الآخر يا رنيم؟

فكتبت كلمةً أخرى في الدفتر، ورفعته أمام كريم، فقرأ:

- الطمع.

- امممممم.

فقال سليم:

- صدقتِ يا رنيم. إن الطمعَ والجهلَ متلازِمَان. رغبة الناس في تحقيق أكبر المكاسب، تقتل ضمائرهم، وتدفعهم إلى عدم الاكتراث لتدمير الكوكب، سعيًا إلى الثروة، حتى وإن أدَّى ذلك إلى نهاية العالم. لا أحدَ يُبالي بخطورة استخدام مصادر الطاقة غير النظيفة؛ لأن تجارة البترول والفحم مربحة... وكذلك تجارة السجائر، ومنتجات المصانع الملوِّثة للبيئة. أجل يا رنيم. الجهل والطمع هما العدوَّان الحقيقيان لهذا العالم، والطمع شكل من أشكال الظلم؛ لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والإنسان الطمَّاع يضع (الاستثمارات الهائلة) في موضع (تدمير العالم)، بدلًا من وضعها في مشروعات تحقق الرخاء للبشر، دون الإخلال بالتوازن البيئي. وكذلك يتجاهل الإنسان الطمَّاع أن (احتياجاته الأساسية ككائن حي) هي الموضع السليم لـ(قوت يومه ونفقات سكنه وعلاجه ونفقات احتياجات أسرته)، لا المليارات التي تحتاج كي تُنفَق إلى مئات السنين!

فقال كريم:

- لو واجهنا الجهل والطمع بشجاعة، فسوف نضمن أن يكفَّ الناسُ عن تدميرِ العالم.

- ونعود إلى طبيعتنا.

- أجل، لقد اشتقتُ إلى صوت الناي.

- ستسمعه مرةً أخرى. أنا واثقٌ من نجاحِنا. لا تقلق أبدًا.

فقطَّب كريم حاجبيه، وتساءل:

- ولكن كيف سندعو الناس إلى تجنُّب الجَهْل والطمع، ونحذرهم من عواقب أفعالهم الخاطئة؟

فكتبت رنيم شيئًا في الدفتر، ورفعته أمام كريم.

- رنيم كتبتْ أن لديها خطة.

فسألها سليم:

- ما هي يا رنيم؟

فنهضت من على المقعد المجاور للنافذة، واتجهت صوب المكتب. فتحت اللاب توب، ثم شغَّلت برنامج الـ Word. فسألها كريم:

- ماذا تفعلين يا رنيم؟

فبدأ يظهر ما تكتبه على الشاشة بخط عريض.

(أنقِذوا الأرض)

فقال كريم بصوتٍ عالٍ:

- أنقِذوا الأرض.

(البشر يفسدون العالم، ويهددون مستقبل الحياة على ظهر الأرض)

فأخذ يقرأ كل عبارة تظهر على الشاشة ليعرف سليم ملامح خطة رنيم.

(العالم على شفا الانهيار)

(لو لم نتحرَّك الآن، فسوف نتعرَّض لأخطار المجاعات، والتغيُّرات

المُناخية، والكوارث الطبيعية)

(توقفوا عن تلويث كوكب الأرض بدخان المصانع، وعوادم وسائل المواصلات التي تبعث ثاني أكسيد الكربون)

(درجة حرارة كوكب الأرض ترتفع، ويجب أن نتخذ إجراءاتٍ حاسمةً لإيقاف الاحتباس الحراري)

(لقد توصل العلماء إلى طرق ناجحة جدًّا لاستغلال طاقة الشمس وطاقة الرياح)

(فلماذا لا نطبق هذا في كل أنشطة حياتنا؟)

(انشروا الألواح الشمسية، ومحطات توليد طاقة الرياح)

(توقفوا عن إنتاج السيارات التقليدية، وأنتِجوا السيارات الكهربائية، والسيارات التي تعمل بالطاقة الشمسية)

(أوقفوا الحروب، وأنهوا خلافاتكم عن طريق الحوار)

(ما قيمة تطوُّرنا العلمي والحضاري إذا أصررنا على حل مشاكلنا بالعنف كما كان يفعل الإنسان البدائي؟)

(موارد كوكب الأرض لن تكفي كلَّ هؤلاء البشر بعد مائة سنة)

(تجنبوا المجاعات بتحديد النسل)

(ابتعدوا عن التصرُّفات المدمِّرة للصحة مثل التدخين وتناول المنبهات والأطعمة عالية الدسم)

(الكوكب يستغيث، فهل ستستمعون إلى صرخته المستنجدة؟)

(كل يومٍ يمر علينا دون أن نتحرَّك، سوف يختصرُ من عمر هذا العالم ألفَ سنة)

(أنتم من بيدكم التغيير، فتحرَّكوا، وارفضوا تدمير هذا العالم)

فقال سليم:

- أحسنتِ والله يا رنيم. ولكن ماذا سنفعلُ بعد أن كتبتِ هذه العبارات؟

فكتبت بعض السطور في الدفتر، وسلَّمته لكريم وهي تعدل نظارتها، فقال:

- رنيم تقترح أن نطبع نُسَخًا عديدةً من هذه الورقة، ونوزعها على الناس في الشارع أمام مكتبة الإسكندرية غدًا.

فقال سليم متحمِّسًا:

- فكرة عبقرية. وهي بالتأكيد أفضل من نشر هذا الكلام على وسائل التواصل الاجتماعي؛ لكي نضمن الاحتكاك المباشر بالناس، ولا تضيع كلماتنا وسط عشرات الترينديات التي تشتت انتباه روَّاد هذه المواقع. وسوف أتبرَّعُ بكل ما ادَّخرتُه في حصَّالتي، من أجل طباعة النُّسَخ. (ومشيرًا بسبَّابتِهِ) هلَّا أحضرت لي يا رنيم حصالتي من درج المكتب من فضلك؟

ففتحت رنيم الدرج، وأخرجت الحصَّالة والمِفتاح، ثم نهضت، واتجهت هي وكريم إلى الفراش الذي يجلس عليه سليم. فتحت رنيم الحصَّالة، وأفرغتها على الفراش، وبدأ كريم في عدِّ النقود، ولما انتهى قال:

- ٢٦٤ جنيهًا.

فقال سليم فرحًا:

- رائع.

فقال كريم:

- سأتبرع بربُع المصروف الذي أعطاني إياه أبي.

وأخرج من محفظته مائة جنيه، وتبعته رنيم (التي أصرَّت على المشاركة

بـ ٢٠٠ جنيه)، ثم قال:

- وسوف نأخذ من حصالتك ١٠٠ جنيه فقط؛ لكيلا تستنفد كل مدخراتك... وبذلك يصبح معنا ٤٠٠ جنيه. سنطبع أكبرَ عددٍ من الأوراق، ونوزِّعها غدًا على النَّاس. وسوف يصلُ صوتُنا إلى الجميع.

فقال سليم:

- ولكن...

فهمهمت رنيم، وفهم كريم أن سليم متردِّد، فسأله:

- ماذا بك يا سليم؟ تبدو محتارًا!

- أنا بالفعل في حيرة يا كريم. كيف سنتمكَّن من الخروج غدًا، برغم أن الدكتور ألزم آباءنا بأن نظل معًا في مكانٍ واحدٍ لا نغادره لمدة أسبوعين؟

فقال كريم بعد أن قرأ ما كتبته رنيم:

- أنت محق يا صديقي. لن يوافق والدك على ذلك أبدًا.

فأخذت رنيم تدوِّن بعض العبارات، قبل أن تعطي الدفتر لكريم. فقال:

- رنيم ترى أننا يجب أن نخرج خلسةً في الصباح قبل استيقاظ والديك، وأن نظل معًا في أحد الجوامع أو نسير على الكورنيش بعد أن نطبع الأوراق، إلى أن يحين وقتٌ يكثر فيه مرور الناس أمام مكتبة الإسكندرية.

فقال سليم:

- فكرة ممتازة. ولكن...

- ماذا؟

- سوف يقلقان علينا لخروجنا دون إذنهما.

فقال كريم مطَمئنًا:

- لا تشغل بالك يا سليم. سيكون معي الموبايل، ويمكننا أن نطمئنَهما علينا في أيِّ وقتٍ.

فقال سليم:

- حسنًا يا كريم. ولكن يجب أن نتوخَّى الحذر في الصباح لنتمكن من إتمام مهمتنا كما ينبغي. أتمنَّى حقًّا أن يتوقَّفَ النَّاسُ عن تدمير هذا الكوكب.

- أجل، لكي نستردَّ حواسَّنا التي فقدناها.

فقال سليم:

- أنا أشعر الآن يا كريم بأن أزمة العالم أكبر من مجرد عينين أو أذنين أو صوتٍ مفقودٍ. هل تعلم؟ لقد أصبحتُ عازمًا على أن أنشرَ أفكارَنا الطامحةَ إلى الإصلاح، حتى وإن لم أستردَّ بصري. يجب أن نُضَحِّي بكلِّ غالٍ في سبيل إنقاذ الكوكب من أفعال البشر. بالرغم من غضبي الشديد من الطريقة التي عاملني بها حارس (أبو الهول)، إلا أنني أجد في رد فعله تجاهنا ما يبرره. لقد تجاوزنا في الإفساد كل المحظورات، ووصلنا إلى شفا الهاوية، ويجب أن نكون حاسمين في تعاملنا مع كل التحديات التي تواجه الحياة على كوكب الأرض. وأنا صادق تمامًا في كل ما أقوله لكما. لم يعد يَعنيني أن أستردَّ بصري؛ فمعركة تحرير الأرض من استبداد البشر تستحق كل التضحيات.

- وأنا مثلك يا سليم. أن يستمع الناس إلى صوت الإصلاح ويستجيبوا له، خير عندي من أن أسمع أي شيء للأبد. وغدًا إن شاء الله سيكون النجاحُ حليفَنا.

الفصل الخامس

خطوة صغيرة نحو إنقاذ العالم

أمام مكتبة الإسكندرية، كان الأصدقاء الثلاثة واقفين على رصيف، وأمامهم كرتونة مليئة بنسخٍ كثيرة من المنشور الذي كتبته رنيم، وبين يدَيْ كلٍّ منهم مجموعة من الأوراق.

كانت الساعة حينئذٍ العاشرة والنصف صباحًا.

في السادسة، بعد أذان الفجر بساعة، تسلَّل الأصدقاء الثلاثة خارجين من المنزل بحذر، وأراد سليم أن يستقلُّوا معًا ميكروباصًا إلى محطة الرمل، غير أن كريم رفض؛ لأن طريقهم نحو إصلاح العالم لا ينبغي أن يبتدئ بمخالفةٍ صريحةٍ للميثاق الذي دوَّنوه في المنشور؛ ولذلك فضَّل أن يقطعوا المسافةَ مشيًا بدلًا من استخدام سيارة تلوِّث البيئة.

ولمَّا وصلوا إلى محطة الرمل، انتظروا ساعتين على الكورنيش إلى أن بدأت الحياة تدِبُّ في الشوارع، ثم قصدوا مطبعة، وطبعوا بالمبلغ كاملًا نسخًا من المنشور، ثم اشترى كلٌّ منهم لنفسه زجاجة مياه، وبعض ساندوتشات الفول والفلافل، وجلسوا معًا أمام البحر يُفطرون ويتبادلون الحوار، ريثما يحين الوقت الذي يتزايد فيه مرور الناس في الشوارع.

اكتشف كريم في التاسعة أن شحن بطارية موبايله قد نفد، فلام نفسه كثيرًا لأنه نَسِي أن يشحن الموبايل قبل خروجه، وخصوصًا أنه كان الوسيلة الوحيدة التي كان والدا سليم سيتمكَّنان من الاطمئنان بها عليهم.

وفي العاشرة والربع، اتَّجه الأصدقاء نحو مكتبة الإسكندرية؛ وقد عانوا كثيرًا من حمل الكرتونة الثقيلة طوال هذه المسافة، لكنهم استطاعوا قطعها بدافعٍ من رغبتهم في أن يكون طريق كفاحهم مطهَّرًا من أي فسادٍ يشوب دافعهم النبيل.

بدأت الرياح تشتدُّ، وتتلاعب بضفيرتَيْ رنيم، فكانت تحاول أن تبقيهما قريبتين من عنقها، وقال سليم:

- إنني أسمع صخب المارَّة. أظن أن هذا هو الوقت المناسب لتوزيع الأوراق.

فلم يرد عليه كريم، فأردف:

- هل تكتبين لكريم في الدفتر يا رنيم؟

فهمهمت مُثبتةً، فقال:

- إذًا ما لك يا كريم صامتًا؟

فقال متوترًا:

- إن نفاد شحن بطارية الموبايل يقبضني... سوف يزيد هذا من قلق أهلنا علينا، ونحن لم نتعوَّد مثلَ هذا الأمر.

فقال سليم مطمئنًا:

- لا تقلق يا صديقي... سوف تنتهي مهمتنا في ظرف ساعتين على الأكثر، وسرعان ما سنعود إلى المنزل.

- أعلم يا سليم، ولكن أخشى أن يكون أهلنا الآن قد شرعوا في البحث

عنَّا... متى يستيقظ والداك بالضبط؟

أجاب سليم من فوره:

- في السابعة تقريبًا، وأحيانًا قبل ذلك، بسبب ارتباط والدي بموعد ذهابه إلى المدرسة التي يعمل فيها... ولكن... لا أظنُّ أن الأمر يستدعي القلق...

- بل يستدعي كل القلق يا سليم... فقد يبلغون الشرطة، أو يشرعون في البحث عنَّا في المستشفيات... ولا تنسَ أننا نُعَدُّ الآن في نظرهم أطفالًا يعانون من صدمة نفسية أفقدتهم السمع والنطق والبصر؛ ولذلك لن يستبعِدوا أن نقومَ بأي سلوكٍ غير متوقَّع.

همهمت رنيم، وأعطت كريم الدفتر، فقرأ ما فيه بسرعة، قبل أن يقول وهو يهز رأسه بأسف:

- رنيم ترى أننا مضطرون إلى الكتمان حتى ولو أثرنا قلق آبائنا؛ لأن اللعنة قد تستمرُّ لو بُحنا بتفاصيلها. ولربَّما يضطرنا أهلنا، إذا رجعنا الآن إلى المنزل، إلى أن نحكي لهم عمَّا مررنا به، وهو ما سيؤدِّي إلى أن نواصل حياتنا فاقدين حواسَّنا.

ومخاطبًا رنيم برقَّة:

- بالرغم يا رنيم من أن مصير الأرض أصبح يشغلني أكثر من فقداني حاسَّة السمع، إلا أنني لا أتحمَّل ألَّا أسمع مرةً أخرى صوتك الذي لم يفشل قط في أن يُطمئنني.

فابتسمت رنيم، وهي تهزُّ رأسها سعيدةً برد فعله، والهدوء الذي عاد إليه بعد أن استولى عليه القلق. وفي هذه اللحظة، لمحت رنيم بجانب عينيها رجلًا كهلًا مقبلًا، فأشارت إليه وهي تمسك بذراع كريم لتنبهه، فهتف

متحمِّسًا وهو يمدُّ يدَه بالأوراق:

- أنقِذوا الأرض... النهاية تقترب... يجب أن نتحرَّك.

وأعطى الرجلَ ورقةً، فأخذها منه وهو يتساءل:

- ما هذا يا بني؟

فقال له كريم:

- اعذرني يا سيدي، أنا لا أسمعك.

فتقدَّم سليم قليلًا مُسترشِدًا بعصاه البيضاء، وقال:

- معذرةً يا سيدي، إن صديقي لا يسمع. أرى أنك تساءلت عن محتوى الورقة. هذه مـ..

فقاطعه الرجل كأنَّه لم يسمع ممَّا قال شيئًا:

- ما هذه الورقة؟ ما هذا الكلام؟! لقد قرأتُ العنوان. أنقِذوا الأرض! وهل الأرض في حاجةٍ إلى إنقاذ؟! وما هذا؟ ما هذا؟! (بصوتٍ مرتفِع) تريدون أن يتوقف الناس عن استخدام السيارات وبقية وسائل النقل، واستخدام سيارات كهربائية؟! (عربيَّات لعبة)! أنتم بالتأكيد مجانين!

فقال سليم في حزم:

- لسنا مجانين يا سيدي. نحن حريصون على مستقبل هذا الكوكب، ولا نريد أن يدَمِّرَه الناسُ بأفعالِهم الخاطئة. نحن جزء من هذا الكوكب، ويمكنك أن تقول إن الكوكب يعبِّر عن اعتراضه على تصرُّفات البشر من خلالنا، مثلما يلجأ إلى وسائل أخرى مثل الكوارث الطبيعية.

فأشعل الرجل سيجارة، وقال وهو يمتصُّ أول نفس:

- كلام فارغ.

فقال كريم محتدًّا:

- ماذا تفعل؟ هل ستُدَخِّن؟ إن سليم صديقي يؤذيه دخان السجائر، كما أنَّ هذا الدخانَ يضرُّ البيئة.

فنظر الرجل إليه في لامبالاة، وقال وهو يهمُّ بالانصراف:

- سأدخِّنُ كما يحلو لي.

وأخذ سليم يسعل بشدَّة، وهو يقول بكلماتٍ مهشَّمة:

- هل... هل سمعتِ... ما قاله يا... رنيم؟ إنه جاهلٌ وغيرُ... مدرِكٍ لعواقب أفعاله... أفعاله المدمِّرة!

فأصدرت رنيم همهمةً متفقةً معه، بينما قال كريم:

- إن أمثال هذا الشخص هم من ستكون نهاية كوكب الأرض بأيديهم.

لم تصدِّق والدة سليم ما تراه. زحفت على عينيها بَغتةً غلالةٌ من دموع، ما لبثت أن تشكَّلت في قطرتين، تساقطتا من عينها اليسرى ثم عينها اليمنى، وهي تتلفَّت حولَها، وتفتش كل ركنٍ من غرفة سليم، ثم تنتقل إلى بقية غرف الشقة، والبلكونات، والمطبخ والحمَّام. لا أثر لابنها الوحيد وصديقيه!

كانت قد استيقظت، في هذا الصباح، في الثامنة، على غير عادتها؛ فقد أصابها الأرق، بسبب ما ابتلي به ابنها الوحيد، ولم تستطع النوم إلا في الثالثة، فتأخَّر استيقاظها. وكان زوجها أيضًا مضطرب النوم، لكنها سبقته في الاستيقاظ، وليتها ما استيقظت. كانت مضطربةً جدًّا في البداية بسبب فوات موعد ذهاب زوجها إلى المدرسة التي يعمل فيها، ولكن صدمة

اختفاء سليم هان بإزائها كل شيء آخر. إن الفاجعة التي ضربت كيانها، أشد من فاجعة استئصال رحمها، وحرمانها للأبد من أن تأتي لسليم بإخوةٍ يؤنسونه.

جلسَتْ في الصالة، على أحد كراسي الأنتريه، والصَّدمة الهائلة تمنعها من التفكير، والدموع لا تكف عن الجريان من عينيها، ولم تدرِ كيف تتصرَّف. لم تُوقظ حتى زوجها لتخبره! كان عقلها مشلولًا، وأطرافها ترتجف، وعلا صوت بكائها، فاستيقظ عادل مفزوعًا، وزاده اضطرابًا تأخره عن موعد ذهابه إلى عمله. اقترب منها قلقًا، وربَّت على كتفها متسائلًا عمَّا بها، فلم تجبه إلا بكلمةٍ واحدة: «سليم». اشتدَّ ارتيابه، فانطلق إلى غرفة سليم، ففاجأه مثل ما فاجأها... الغرفة خالية. وحين بحث في الشقة، علم سبب انهيار زوجته. لقد ترك سليم وصديقاه المنزل.

تمالك عادل نفسه سريعًا، واستعاد رباطة جأشه، وقال محاولًا طمأنة زوجته:

- سوف أذهب حالًا للبحث عن سليم وصديقيه في الأماكن القريبة. لعلَّهم خرجوا لكي يشتروا أي شيء، أو للعب قليلًا في شقة أختي، أو...

فرفعت رأسها، وهتفت:

- لا تهوِّن الأمر من فضلك يا عادل. كيف لأطفال في هذه السن، مروا بهذه الصدمة التي أفقدتهم حواسَّهم، كيف لهم أن يخرجوا للَّعب أو ليشتروا أي شيء؟! الأطفال إما خُطِفوا أو هربوا، ويجب أن نبلغ الشرطة حالًا، قبل أن نذهب معًا للبحث عنهم.

أومأ إليها موافقًا، وسرعان ما ارتديا ثيابهما، وأقنع عادل زوجته، بعد أن علم من أخته حين اتصل بها أن الأطفال ليسوا معها، بأن يبحثا عنهم أولًا في

الأماكن القريبة، ثم إذا فشلا في العثور على الأطفال، يبلغان الشرطة لكي تقوم بدورها.

وقبل أن يخرجا، اتصل عادل بالمدرسة التي يعمل فيها، لكي يطلب من المدير إجازة عارضة، بسبب اختفاء ابنه، فواساه، وتمنى له أن يجده في أسرع وقت، بينما وضعت زوجته في حقيبتها الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على الروشتات والأدوية، تحسُّبًا لاحتياج الأطفال إليها إذا قدَّر الله أن يعثرا عليهم؛ فقد خشيت أن يكون اختفاؤهم له علاقة مثلًا بعدم تناولهم للأدوية؛ فقد لاحظت أن الشرائط لم تزل كما هي!

أغلقت حقيبتها، ونزلت مع زوجها على الدَّرَج. وما لبثا أن أصبحا في الشارع، وبدآ البحث بسؤال أصحاب المحلات المجاورة عن الأطفال، وهما يدعوان الله في كل خطوة ألا يلحق بهم مكروه، وأن يجداهم في أقرب وقت.

هدأ سعال سليم، وشرب بعض الماء لكي يتمكَّن من التنفُّس بسهولة بعد أن هيَّج دخان السجائر جهازه التنفسي، وما إن أنزل الزجاجة عن فمه، حتى لمح كريم امرأةً ثلاثينيةً تمرُّ بهم. كانت ترتدي بلوزةً بنيةَ اللون، وجيبةً سوداءَ، وإيشاربًا مشجَّرًا. أعطتها رنيم ورقةً، فتساءلَت المرأة:

- ما هذا يا بنتي؟

فقالت رنيم:

- امممممم.

فتقدَّم سليم كما فعل في المرة السابقة مقتربًا من مصدر الصوت، وقال

للمرأة بصوتٍ متحشرج:

- اعذرينا يا سيدتي. إن صديقتي لا تتكلَّم. نحن نحاول أن ندعوَ الناسَ إلى المحافظة على هذا الكوكب، وعدم تدميره.

فقالت المرأة مندهشة:

- كوكب! يا بني إن ما يريده الله هو ما سيكون. لا دخل للعبد في ملك الله. سبحان الله!

فقال لها سليم:

- اقرئي الورقة يا سيدتي. نحن لا نعترض على إرادة الله، وإنما على تصرُّفات البشر التي تدمر العالم، وتُهلِك مخلوقات الله. اقرئيها.

بدأت المرأة تقرأ، إلى أن استوقفها سطر، فقالت:

- (توقفوا عن تلويث كوكب الأرض بدخان المصانع ووسائل المواصلات التي تبعث ثاني أكسيد الكربون)! ما هذا؟ وكيف سننتقل من مكانٍ إلى آخر إذا لم نستخدم وسائل المواصلات؟!

- نحن ندعو الحكومة، بل جميع الحكومات في العالم، إلى منع إنتاج السيارات التي تعمل بالبنزين والسولار، وإنتاج سياراتٍ كهربائيةٍ وسياراتٍ تعملُ بالطاقة الشمسية بدلًا منها؛ لكي نحافظَ على كوكب الأرض.

- أنتم مجانين. أجرة المواصلات زادت، وأصبحنا نتنقل بأغلى الأثمان، وأنتم تريدون أن تلغوا المواصلات كلها! و... و... لا أعرف ماذا تريدون! كيف ستنقلنا من مكانٍ إلى مكانٍ سيارات أطفال تعمل بالبطارية؟!

ثم مزقت الورقة بعنف، ونثرت أشلاءها في وجوههم، فبدَّدتها الرياح في كل مكان، وصاحت بهم في غضب:

- أنتم أطفالٌ أشقياء. والعيب ليس عليكم. العيب على أهاليكم الذين سمحوا لكم بالوقوف هكذا واستفزاز الناس، بدلًا من الذَّهاب إلى المدرسة.
وسمعت نفير ميكروباص، فاستدارت وبدأت تهرول وهي تصيح:
- عصافرة يا اسطى؟ عصافرة؟!
فوضعت رنيم الأوراق التي معها في الكرتونة، وأمسكت الدفتر، وبدأت تكتب. وقال سليم:
- ما هذا الجهل؟! إنها غيرُ مباليةٍ بأن الكوكبَ يستغيث، ويُعَبِّر عن استغاثته مثلما يحدُثُ مع أيِّ طفل يُصاب بميكروب. ترتفع درجة حرارته، ويصاب بالغثيان، ويتقيأ. هاهو كوكب الأرض ترتفع درجة حرارته سنةً بعد سنةٍ، ويتقيَّأ حممًا بركانية وجليدًا ذائبًا، حتى ارتفع منسوبُ البحار والمحيطات، وانتشرت الأعاصير والكوارث الطبيعية، مثل تسونامي الإسكندرية الذي رأيناه جميعًا بأعيننا كأننا نرى نهاية العالم. ألم توقظ رؤية التسونامي من ضمائرهم شيئًا؟! الكوكب أصبح مريضًا، ونحن مع الأسف الميكروب الذي أصاب كوكب الأرض! وهذه المرأة وغيرها يعميهم الجهل عمَّا نواجِهُه.
فأصدرت رنيم همهمةً منبِّهة، وأعطت الدفتر لكريم، فقال بعد أن قرأ ما كتبته:
- إن رنيم تعتقد أنَّ الإنسانَ الجاهلَ مثل الطفل الذي يرى النار لأول مرة. لن يخاف من أن تحرقه، ولذلك يقرِّب منها إصبعه. لو لم يمنعه أبوه أو أمه، فقد يؤذي نفسه.
فقال سليم:

- أنتِ مُحِقَّة يا رنيم. ولا بد لنا من أن نواظب على ما نفعله لكي يصل صوتُنا وصوتُ كوكب الأرض المعترض على استبداد البشر إلى أكبرِ عددٍ ممكنٍ من الناس.

وهتف كريم:

- انظروا.

ففي تلك اللحظة، كان يمرُّ بهم رجل نحيل، وامرأةٌ شديدةُ البدانة، ومعهم خمسة أطفال، أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره، وبين كلِّ طفلٍ والآخر سنتان على الأكثر! وأربعة من هؤلاء الأطفال يعانون من السمنة المفرطة. وخمَّن سليم عددهم من أصواتهم المتداخلة.

أعطى كريم الرجلَ ورقة، وهو يترقَّب ردَّ فعلِه. فتساءل الرجل:

- ماذا تريد يا بني؟

فقال سليم:

- إنها دعوةٌ منَّا لأن يحافظَ الناسُ على كوكب الأرض.

فقالت المرأة مستنكرةً:

- وهل نحن نفسد كوكب الأرض؟ نحن مسلمون موحِّدون بالله، ولله الحمد، وليس منا أحدٌ سرق أو قتل أو آذى أحدًا.

فقال الرجل:

- انتظري يا سعاد. لنقرأ ما في الورقة، ثم نحكم.

وقرأ الرجل الورقة سريعًا، إلى أن وصل إلى السطر الذي نصُّه: (تجنَّبوا المجاعات بتحديد النَّسل)، فقال متعجِّبًا:

- نتجنَّب المجاعات بتحديد النسل! ما هذا الكلام الغريب؟! ما العَلاقة ما

بين المجاعات والإنجاب؟ إن الطفل -أي طفل- يولَد برزقه...
وقالت سعاد وهي تحاول السيطرة على أطفالها:
- طبعًا، الطفل يأتي برزقه. ونحن -والحمد لله- غير مقصِّرين. هل أحضرتَ يا طارق للأولاد الشيبسي والحلوى التي طلبوها منَّا قبل أن نخرج من المنزل؟
فقال بإذعان:
- نعم يا سعاد أحضرتها.
- إذًا هيا بنا نواصل السير بعيدًا عن هؤلاء الأطفال الأشقياء الذين يشاكسون الناسَ بكلامهم الفارغ... لا نريد أن نتأخَّر على أمي في (البحيرة). يكفينا أن الأولاد لم يذهبوا إلى المدرسة اليوم ليقضوا ثلاثة أيام كاملة في منزل جدتهم. هيا بنا.
وانصرف طارق وسعاد وهما يعانيان في سبيل السيطرة على صخب أطفالهما، ورفع كريم عينيه عن الدفتر الذي كتبت له فيه رنيم مجريات الحوار، وهز رأسه في يأس وهو يقول:
- هل سمعتَ يا سليم؟ لا أمل!
فقال سليم مشجِّعًا:
- لا تفقد حماسَكَ سريعًا يا كريم. لا بد لنا من أن نصبرَ ونتثبَّتَ حتى نُحَقِّقَ ما نسعَى إليه. إن الاستسلام الآن لا يعني إلا أن تضحيتنا قد راحت سدى.
وفي هذه اللحظة، اقترب ضابطٌ من سليم، وربَّت على كتفه، فقال سليم بمودَّة وهو يظنُّه أحدَ المارَّة:
- أهلًا يا سيدي. هل تريد ورقةً ممَّا نوزِّعه؟

وأعطاه نسخة، وهو لا يعلم حقيقته، فأخذها الضابط، ولوَّح بها في وجهه وهو يسأله:

- ما هذه الأوراق؟ وما الذي تفعلونه هنا؟

حاول كريم أن ينبِّه صديقه بأن يلكزه في كتفه، غير أن سليم لم ينتبه، وأجاب قائلًا:

- إنها محاولةٌ منَّا لدعوة حكومات العالم إلى إنقاذ كوكب الأرض من تدميرِ البشر له.

فقال الضابط مستنكرًا:

- حكومات العالم؟ هل معكم تصريحٌ أمنيٌّ بتوزيع هذه الأوراق؟ ومن الذي أرسلكم؟ وما هذا؟ (ينظر في الورقة ويقرأ) أنتم من بيدكم التغيير، فتحرَّكوا، وارفضوا! يا نهار أسود! تُحَرِّضونَ الناس على التحرُّك والرَّفض والتغيير!

فقال سليم مرتبكًا:

-هل... هل لي أن أعرف من حضرتك يا سيدي؟

فقال الضابط وهو يفرد قامته ويشير إلى نفسه في تكبر:

- من أنا؟ ألا ترى زيِّي الرسميَّ، وهذه النجومَ التي على كتفيَّ؟!

فقال كريم:

- اعذرنا يا سيدي. إن صديقي كفيف.

فهتف فيه:

- إذًا آن الأوان لأن يعلم أنني ضابط. سوف أصحبكم الآن إلى القسم، لكي نحقق معكم، ونعرف بالضبط من وراءكم. هيا معي لتركبوا في البوكس.

فقالت رنيم بنبرة معترضة:

- امممممم.

وقال سليم:

- لا... لا. أنت لا تفهم ما نريد أن نفعله. كوكب الأرض سيُدمَّر لو لم يعرف الناسُ ما هو مكتوبٌ بهذه الأوراق... أرجوك.

فقال الضابط وهو يمسك به من ذراعه:

- وفرِّوا كلامكم للقسم.

فقاومه سليم، وهو يصيح معترضًا، وحاول أن يبتعد عنه، لكن الضابط جذبه بعنف، فسقط سليم على وجهه وانشقَّت شفته السفلية. وحاولت رنيم أن تتدخل، فلطم الضابط وجهها، فسقطت نظارتها على الأرض، ثم اقترب من سليم، وداس أثناء اقترابه على نظارة رنيم وحطَّمها، وانحنى وأمسك سليم من كتفيه، وأنهضَه والدماء تغرق ذقنه ورقبته، وراح يصرخ فيه وهو يوجه لكمةً موجعةً إلى صدره:

- إياك أن تقاوم مرةً أخرى... إياك.

وعندئذٍ نثر كريم الأوراق التي معه في كل مكان، وكذلك الأوراق التي في الكرتونة، وهو يهتف:

- اقرءوا أيها الناس. اقرءوا وفكروا؛ لكي تنقذوا هذا العالم. اقرءوا... اقرءوا.

الفصل السادس

المواجهة!

في حجرة مأمور قسم شرطة باب شرقي، كان الأستاذ عادل والد سليم (الذي اتصل به المأمور بعد القبض على الأطفال) جالسًا أمامه، وزوجته في مواجهته، وبجوارها الفنانة رولا توفيق، وبجوار الأستاذ عادل، والد كريم الدكتور محمود. وكان الأصدقاء جالسين في ثلاثة مقاعد متجاورة بقرب الباب، والدماء متجلِّطة على شفة سليم وذقنه ورقبته، بينما كانت رنيم مضيِّقة عينيها، لأن الرؤية أصبحت غير واضحة بعد أن حطَّم الضابط نظارتها، وتحت عينيها آثارٌ مِلحيَّةٌ من جرَّاء جفاف دموعها التي ظلَّت تذرفها حتى مجيء أمها، واحتضانها لها.

لم يكن الوصول إلى آباء الأطفال صعبًا؛ فقد كان أول سؤال وُجِّه إليهم في القسم عن أرقام موبايلات أولياء أمورهم. وسرعان ما حضر والد سليم ووالدته، ووالد كريم، ووالدة رنيم. وقد كان الأستاذ عادل يعلم في قرارة نفسه أن الأمور سوف تئول إن عاجلًا وإن آجلًا إلى قسم الشرطة؛ إذ لم يستطع أن يعثر هو وزوجته على الأطفال في أيٍّ من الأماكن القريبة، فاضطرَّ أن يذهب معها إلى القسم، ويقدِّم بلاغًا عن اختفائهم، وذلك بعد أن أنبأ والد كريم ووالدة رنيم بهذا الأمر. ولم تمض ثلاث ساعات إلا والمأمور

في القسم يتَّصل بالأستاذ عادل، ويخبره... لا بالعثور على الأطفال، وإنما بالقبض عليهم بتهمة إثارة الشغب، والتحريض على العنف، ومقاومة السلطات، ومحاولة قلب نظام الحكم!

لم يعلم في تلك اللحظة هل يفرح لأنهم عثروا على الأطفال، أم يستسلم لليأس والاكتئاب بسبب اتهام ابنه وصديقيه بهذه التهم الكفيلة بتدمير مستقبلهم! وذهب من فوره هو وزوجته إلى القسم، ليجد أن الأطفال في ورطة لا قِبَل لهم بها!

قال والد سليم للمأمور:

- يا سيادة العميد، الأولاد لم يفعلوا شيئًا يستحقُّ كلَّ هذه الجلبة... ثم كيف يكون لهم توجُّه إرهابي، وهم لا يزالون أطفالًا في المرحلة الإعدادية لا خطر منهم على أي إنسان أو حكومة في العالم؟! أطفال أبرياء لا يد لهم في أي من التهم الموجَّهة إليهم.

فقال له المأمور مستنكرًا:

- كيف يا أستاذ عادل؟ لقد وزَّعوا منشوراتٍ في أحد الأماكن الحيوية دون الحصول على تصريح من وزارة الداخلية. كما أن محتوى هذه المنشورات يحرِّض على أجهزة الدولة، بل وعلى قلب نظام الحكم، وإثارة البلبلة والفوضى. إنهم يَدْعون إلى التوقُّف عن استخدام الوقود، برغم أنَّ في مصرَ وزارةً كاملةً للبترول والثروة المعدنية، تشرف على إنتاج وتوزيع هذه السلعة الحيوية في كل ربوع مصر لكي تستمر الحياة بشكل طبيعي. كما أنهم يثيرون هلع المواطنين بادِّعائِهِمْ أنَّ كوكب الأرض على شفا الانهيار، والحياة -كما ترى- مستمرَّة، ولا يوجد ما يُعَطِّل مسارَها. إن دعواتهم هذه

لا فرقَ بينها وبين ما يهدف إليه الإرهابيون من نشر الرعب والفوضى، وإثارة البلبلة، وتدمير سُبُل الحياة الحديثة، والارتداد إلى عصور البدائية... ولولا أنني أعلم أنك مدرِّس محترم، لكان رد فعلي مختلفًا تمامًا، وخصوصًا معكم، ولوَجَّهت إليكم نفس التُّهَم لأنكم أنتم المسئولون عنهم.

وعندئذٍ تدخَّلَت والدة رنيم، وقالت بصوتٍ منخفض:

- يا سيادة العميد، الأولاد يُعالَجون نفسيًّا في الوقت الحالي. لقد تعرَّضوا لصدمة نفسية، أفقدت سليم البصر، ورنيم النطق، وكريم حاسَّة السمع. ولا أعرف هل الروشتات موجودة مع أحدٍ منَّا أم لا.

فأشارت إليها والدة سليم بيدها، وأخرجت من حقيبتها الروشتات الثلاثة التي كتبها لهم الطبيب النفسي، وأعطتها للمأمور، بينما تابعت رولا:

- هذه الروشتَّات تؤكِّد الكلام الذي قلته لحضرتك. ويمكنك أن تتأكد من الطبيب بنفسك.

أخذ المأمور ينظر في الروشتات بتمعُّن، بينما قالت له والدة سليم:

- لعلَّ ما فعلوه كان بدافعٍ ممَّا مرُّوا به من قبل. لقد وصل بهم الأمر إلى الخروج من البيت في الصباح دون أن يُخبرونا، ولقد أبلغنا عن اختفائهم بعد أن عجزنا عن العثور عليهم في أي مكان قريب، إلى أن علمنا بوجودهم في القسم.

وقال الدكتور محمود وهو يميل برأسه إلى الأمام:

- أرجو أن تَرفُق بهم يا سعادة الباشا، وأن تتفهَّم حالتهم، وأن تعلم جيدًا أن تعرُّضهم لمثل هذا الصدمة النفسية، ربما أثر على حكمهم على الأمور وعلى ردود أفعالهم، وأتمنى أن يشفوا ممَّا يُعانونه قريبًا.

فأثار غضبَ سليم ما سمعه من عباراتٍ تقدح في قواهم العقلية، وقال باندفاعه المعهود:

- لا يا دكتور محمود. نحن لسنا مجانين. يجب أن ننقذ كوكب الأرض... وما فعلناه هو واجبنا تجاه العالم، وينبغي أن نوقف المفسدين عند حدِّهم. كما أنكم لم تتحدَّثوا إطلاقًا عن التعامل العنيف معي أثناء القبض عليَّ، واللطمة التي تلقتها رنيم، وتحطيم الضابط لنظارتها! ألم يرَ أحدٌ منكم هذا الدم الذي على رقبتي؟! ألم تسمعوا نحيب رنيم وقت وصولكم؟! لماذا لا...

فقاطعه والده قائلًا في حزم:

- اسكت الآن يا سليم، وأَجِّلِ الكلامَ حتى نرجع إلى المنزل، ودعنا نتابع كلامنا مع سيادة العميد.

رفع مأمور القسم نظره عن الروشتَّات، وقال:

- حسنًا، سوف أتغاضى عن الموضوع هذه المرَّة، ولن أرسِلَ الأولاد إلى نيابة الأحداث. ولكن إذا تكرَّرَ هذا الأمر، أو شعرنا بوجود أي خطورة على أمن البلد، فلن أتردَّد في فعل اللازم؛ وأنتم -كأولياء أمور- تدركون ما أقصده جيدًا. وأرجو أن تنتبهوا لتحرُّكات هؤلاء الأطفال طوال فترة العلاج؛ لكيلا يكرِّروا ما فعلوه، ويسببوا ما لا تُحمد عقباه، لكم ولهم... لكم ولهم. والآن يمكنكم أن تنصرفوا.

فقال له الأستاذ عادل بنبرة متوترة، وقد استشعر ما تتضمَّنه كلماته من تهديد صريح:

- أشكرك جزيلًا يا سيادة العميد، وأعِدُكَ بألَّا يحدثَ ما يثيرُ القلق في الأيام القادمة.

- إن شاء الله.

وغادر الآباء والأطفال غرفة المأمور، وفي الخارج، لم ينتبهوا إلى موبايلات الصحفيين التي التقطت لهم بعض الصور خفيةً! كما لم ينتبهوا إلى ذلك الرجل أوروبي الملامح الذي كان يرتدي (أيس كاب)، ويختلس النظرات إليهم من بعيد، ذاهبًا آئبًا على الرَّصيف يدَّعي انتظاره أحد الميكروباصات المتَّجِهة إلى سيدي جابر.

كان اليأس في تلك اللحظة يعلو ملامح الأطفال، وأحسَّ سليم، وهو يتحسَّس ما حوله بعصاه البيضاء، في طريقهم إلى سيارة والده، بعد أن فشل هو وصديقاه في محاولة إنقاذ الكوكب من ظلم البشر، أحسَّ أنه فقد فرصته في أن يُنقذ العالم وأن يستردَّ بصره... للأبد!

الفصل السابع

تسقط أنظمة الحكم وتحيا الأرض

تطوَّرت الأحداث سريعًا على نحوٍ لم يتوقَّعه الأطفال! فما مرَّت ساعاتٌ على عودتهم إلى البيت، حتى اشتعلت مواقع التواصل الاجتماعي، وأصبح القبض عليهم ترينداً جديدًا، وعَرَف المنشور الذي طبعوه طريقَه إلى شبكة الإنترنت؛ فقد صوَّره أحدُ الشباب الذين مرُّوا بمكان وقوفهم أمام مكتبة الإسكندرية بعد القبض عليهم -إذ وجد الأوراقَ متناثرةً على الرصيف- ونشر الصورة على صفحته مؤيِّدًا لِمَا جاء بها. وزاد الصورةَ انتشارًا ما ذاع من أخبارٍ تتعلَّق بتعرُّض الأطفال للضرب والإهانة من قِبَل الشرطة، مرفقة بها صورة سليم أمام قسم الشرطة والدماء المتجلِّطة تملأ شفته وذقنه وعنقه، وهو ممسكٌ بيده عصا جدِّه البيضاء، وعلى ملامحه بؤسٌ بالغ، وفي عينيه، اللتين لا تريان، نظرة حزينة شاردة.

وانتشرت شائعاتٌ تتحدَّث عن احتجاز الأطفال ومنع أهاليهم من الالتقاء بهم، بل واتهامهم بمحاولة قلب نظام الحكم، ممَّا أدَّى بهم إلى صدمةٍ نفسيةٍ أفقدت واحدةً منهم النطق، والثاني البصر، والأخير حاسة السمع.

وفي حين كانت رنيم تتابع الأخبار على اللاب توب الخاص بسليم، كان كريم يضع موبايله في الشَّاحن لكي يتابع هو الآخر مواقع التواصل

الاجتماعي، ويعرف كل جديد، ويخبر به صديقيه.
وكان سليم جالسًا على فراشه، يسترجع لحظة سقوطه على الأرض، والأصوات التي صاحبت القبض عليه، والسائل الدافئ المالح الذي سال من شفته. وأخذ يردد في نفسه: «الأمور لن تتوقف عن التدهور. سيقع حتمًا أمرٌ أشدُّ قسوةً... لا شكَّ عندي في هذا».

في ذلك الوقت، تراجع الرجل الأوروبي، الذي كان يراقب الأطفال لحظة خروجهم من القسم، في مقعده، بأحد كافيهات شارع فؤاد؛ إذ كان يجري محادثةً نصيةً، ويبدو أن آخرَ رسالةٍ وصلت من الطرف الآخر كانت تحمل له تعليماتٍ بخصوص ما ينبغي عليه فعله إن ساءت الأمور. نظر إلى الشارع ساهمًا، وشرع يفكر في كل الاحتمالات المتاحة، وطرق التصرُّف، وبدا له، مثلما أخبره رئيسه، أن ما هم مقبلون عليه، إما أن يتحوَّل إلى أهمِّ فرصةٍ على الإطلاق في مسيرتهم، وإما أن ينقلب كارثةً، لن تضرَّهم على كل حالٍ في شيء، ولكنها ستحمل الضرر، كل الضرر، للأطفال الثلاثة!

بينما كان سليم وصديقاه جالسين في حجرته يتابعون الأخبار في قلق وترقُّب، كان الأب يتابع التليفزيون في الصالة. وظهرت أمامه على الشاشة مذيعةٌ بإحدى القنوات الإخبارية العالمية، وهي تعرض الأخبار. واحتلَّت صورة ابنه سليم وصديقيه الشاشة، والمذيعة تقول:
- تمَّ اعتقالُ مجموعةٍ من النشطاء في القاهرة، إثر احتجاجهم في ميدان التحرير، بسبب القبض على ثلاثةِ أطفالٍ في مدينة الإسكندرية. وقد رفع

المحتجُّونَ شعاراتٍ تدعو إلى إنقاذ كوكب الأرض، والتحرُّك قبل فوات الأوان لمواجهة الاحتباس الحراري والتغيُّرات المناخية التي تسبَّبَ فيها الجنس البشري. وقد تمَّ الإفراج عن الأطفال بعد أقل من ساعة، حين قدَّم والدُ أحدِهم ما يثبت أنهم يخضَعون للعلاج النفسي، وأن تصرُّفاتهم راجعة إلى...

فقطَّب الأب، وبدَّل القناة قبل أن تسترسل المذيعة في التفاصيل، فظهر على القناة التالية أحد مذيعي التوك شو وهو يهتف في غضب:

- أطفال مأجورون. يريدون أن يُكدِّروا السلم العام، وأن يحرجوا النظام. لن نكون أفضل من الدول الأوروبية وأمريكا، وجميعها تستخدم البنزين والسولار، بل ويشنون الحروب الهائلة من أجل البترول. وأنا أطمئِنُ جميع المواطنين. إن الاكتشافات البترولية العملاقة سوف تستمرُّ رغم أنف الحاقدين والخونة والعملاء والإرهابيين الذين لا يريدون لنا أن ننهَض. واستمرار الحياة على الكوكب أو انقراضها أمرٌ يخصُّ الله وحده، ولا شأن للعباد به. وإن الناس لن...

فبدَّل القناة بأخرى، كان يظهر فيها شابٌّ يحاوره مذيع.

الشاب: إنَّ كلَّ المطالب التي كتبها الأطفال في الورقة، التي كانوا يوزعون نسخها على المارة، هي مطالب مشروعة ولا غبارَ عليها، وجميعنا نتمنَّى أن تكون هناك وقفة مع التجاوزات التي يرتكبها البشر في حقِّ هذا الكوكب. لا بد لنا من أن نتَّخذ إجراءاتٍ حاسمةً قبل فوات الأوان لتخفيض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، ولوقف الزيادة السكانية غير المحكومة، وحل خلافاتنا بالحوار، لا بالحروب، التي وصلت حتى إلى قلب أوروبا، واستغلال موارد الآخرين.

المذيع: ولكن ألا ترى أنه من الصعب أن يكتبَ أطفالٌ صغارٌ منشورًا يناقش هذه الأفكار الكبيرة التي لا تتلاءم مع أعمارهم؟ ربما كتب شخصٌ أو جهةٌ ما هذا المنشور، واستغلُّوا الأطفال لتحقيق أكبر المكاسب.

الشاب: في هذا العصر لم تعد المعرفة حكرًا على طائفةٍ دون أخرى، أو على مرحلةٍ سنيةٍ معيَّنة، بل أصبحت متاحةً لكل من يمكنه الدخول على الإنترنت. وجميع ما طرحه الأطفال من قضايا، قد طُرِحَ كثيرًا في المجلات العلمية والقنوات الوثائقية من قبل. ولذلك لا أرى في ذلك ما يستحقُّ الدهشة.

المذيع: لكن غيرك رأى في الأمر ما يستحق الاعتقال، لا الدهشة فحسب!

الشاب: لقد خرجوا قبلَ ساعاتٍ من قسم الشرطة، والحمد لله. وللأسف تتداول وسائل الإعلام أن هؤلاء الأطفال يُعالجون نفسيًّا من صدمةٍ أفقدت أحدَهم بصرَه، والآخر سمعَه، وأفقدت صديقتَهما النطقَ. ويقول بعض الناس إنهم مجانين ولا يجب أن نعوِّل على كلامهم. أنا أرى أنَّ من يُقدِمُ على هذا الفعل هو شخصٌ في غايةٍ من رجاحة العقل. والعجيب أن الأطفال الثلاثة، منهم مَن لا يسمع، ومنهم مَن لا يُبصر، ومنهم مَن لا يتكلَّم. لكنهم برغم هذا، سمعوا كلَّ ما يسيء للعالم، ورأوا كلَّ ما يدمره، وتكلَّموا بالحلول التي ستوقف الدمارَ الذي نُحدِثه، ووقفوا وهتفوا في وجوه أُناسٍ لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم بإزاء تدمير البشر لهذا الكوكب.

وحينئذٍ، أغلق عادل التليفزيون، وتنهَّد غير مصدِّق ما حدث. كيف تطوَّر الأمر إلى هذه الدرجة؟ وما الذي حدث للأطفال؟ كأن المحنة التي مرُّوا بها في الرحلة استبدلت بهم أطفالًا آخرين غير الذين كان يعرفهم! تلوح في

عيونهم أعباءٌ وهمومٌ تنوء بها الجبال، ولا يتخيَّل أحدٌ أن تجولَ بأذهان أطفال في المرحلة الإعدادية! هناك أمرٌ غير مفهوم... قد يكون أكبرَ من الصدمة النفسية!

وفي تلك اللحظة، لم يتخيَّل الآباء، ولا الأطفال، أن يصبح الأمر ترينداً عالميًّا، على غرار ما حدث مع الطفلة السويدية جريتا تونبرج التي اختارتها مجلة (تايم) في ٢٠١٩ شخصية العام، بعد أن قرَّرت الإضراب عن الذهاب إلى المدرسة، والاعتصام أمام مبنى البرلمان السويدي، خلال ساعات اليوم الدراسي، مطالبةً الحكومة السويدية بأن تتعامل بجدية مع قضية خفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، والالتزام باتفاقية باريس للمناخ التي وَقَّعت عليها السويد عام ٢٠١٥.

لكن التريند الخاص بالأطفال كان أكثر انتشارًا!

بل إن اليوم التالي شهد تظاهرات في أنحاءٍ عِدَّةٍ بالعالم، ولا سيَّما الأماكن المتضرِّرة بسبب التغيُّرات المناخية، والأماكن المهدَّدة بالاندثار للأبد بسبب ارتفاع منسوب المياه في المحيطات... تظاهرات تندِّد بأنظمة الحكم التي تتهاون في التعامل مع ملف التغيرات المناخية، بل وتضطهد أيَّ شخصٍ يشير إلى هذه الكارثة المدمِّرة.

ويبدو أن السلطات أدركت أن الأمر بدأ يمثل خطورةً على الاستقرار والأمن العام؛ فما مرَّ وقت المغرب من ذلك اليوم، إلا والأستاذ عادل والدكتور محمود والفنانة رولا توفيق في القسم يواجهون تهمة الانتماء إلى جماعة محظورة!

كانت لحظة القبض على والد سليم هادئة. لم يُقاوم ولم يعترض. علم أنه

في هذه اللحظة يفدي بنفسه ابنه الوحيد، الذي لن يُرزق أبدًا غيره. جهَّزَت له زوجته حقيبته، وهي تبكي، ووقف سليم برفقة صديقيه، وشعر بمرارة لم يستطع التعبير عنها. أخذ يرسم ملامح أبيه في ظلام عينيه، وفي حلقه غصَّة ورغبة في أن يتحوَّل جسده الصغير كائنًا عملاقًا يتغلَّب على الضباط وأفراد الأمن، ويطير عاليًا بأبيه لكي يمنعهم من القبض عليه، لكنَّه سقط بَغتةً من قمة خياله إلى هاوية الواقع المؤلم، حين ربَّت والده على كتفه، واحتضنه، فتدفَّقت دموع سليم على قميص والده، الذي أخذ يُطمئنه بأن الأمر لن يدوم، وأنه سيخرج قريبًا.

انتهى كل شيءٍ في لحظات. الأم جالسةٌ في الصالة تبكي... الأستاذ عادل في القسم برفقة الدكتور محمود والفنانة رولا، والأطفال في حجرتهم، يسترجعون لحظات سجنهم في تمثال (أبو الهول)، واللعنة التي يبدو أنها امتدَّت لتشمل آباءهم، وتذيقهم مرارة الابتعاد عن أبنائهم. فما أشدَّها من لعنة، وما أصعب الشرط الذي اشترطه حارس (أبو الهول)! كيف يتمكَّن أطفال لا حول لهم ولا قوة من أن يوقفوا إفساد البشر لهذا العالم. إن أولئك البشر لا يتورَّعون عن ضرب الأطفال، والتفريق بينهم وبين آبائهم، لمجرَّد أنهم لا يتحمَّلون ورقةً فيها دعوة سلمية لإنقاذ العالم! كيف يتحمَّس لإنقاذ العالمِ مَن يؤذي الدَّاعين إلى إنقاذ العالم؟! هذا مُحال.

ولم يتخيَّل الأصدقاء الثلاثة أن هذه الليلة التي سيرقدون فيها يائسين من تحقُّق آمالهم، سوف يعقبها صباح، سيتغيَّر فيه مجرى حياتهم ومجرى التاريخ... للأبد!

الفصل الثامن

#أنقذوا - الكوكب

بعد أن استيقظ الأطفال، وتناولوا فطورهم في أجواء يُخيِّم عليها الحزن بسبب ما حدث البارحة، اجتمعوا في غرفة سليم. طلبت رنيم من كريم أن يتَّصل بخالتها لتطمئنَّ على والدتها وأخيها الصغير آسر، فعلم سليم من خالتها أن أختها رولا هاتفتها قبل أن ترحل مع قوات الشرطة لكي تستبقي لديها أخا رنيم، وأنها أخبرتها أنها سوف تطلب منه أن ينتظرها بشقة جارتها ريثما تأتي، وما لبثت أن جاءت مسرعةً، واصطحبته معها إلى شقتها. فتنهَّدت رنيم في ارتياح، بعد أن علمت أن أخاها الصغير بخير برفقة خالتها وأبنائها الذين يستمتع أخوها جدًّا باللعب معهم، وواصلت هي وكريم ما كانا يفعلانه أمس من البحث عن تطورات الأحداث على شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وأخذ كريم يقرأ بصوتٍ عالٍ من اللاب توب والموبايل غيرَ مصدِّق ما يحدث!

بالرغم من اتهام الأطفال بالانضمام إلى تنظيم إرهابي، والتخطيط لقلب نظام الحكم -هذه الاتهامات التي تثير السخرية- والقبض على آبائهم بتهمة الانتماء إلى جماعة محظورة، إلا أنه كان هناك على الجانب الآخر اهتمامٌ من صفحاتٍ كثيرةٍ بالمنشور الذي كتبته رنيم، واكتشفوا أنه تُرجِم

إلى لغاتٍ عِدَّة، وأنه منتشر على الصفحات الأجنبية مثل الصفحات العربية! وكانت مواقع الأخبار مهتمَّةً بتفاصيل هذا الأمر، وانتشرت الشائعات التي زادت المعارضين انتقادًا لنظام الحكم، ليس في مصر فقط، وإنما في كل دول العالم، وخصوصًا مع انتشار صورة سليم والدم يغطي شفته وعنقه... فكيف يُقبض على أطفال لم يرتكبوا أي جريمة على الإطلاق، بل دعوا بسلميةٍ إلى إنقاذ هذا العالم قبل فوات الأوان؟!

وبعد أن أنهى كريم قراءة أحد الأخبار على موقع BBC، جلس على المقعد المجاور للنافذة، وقال لرنيم:

- أغلِقي اللاب توب. لقد عرفنا تقريبًا كلَّ ما يحدث في الخارج.

فأغلقت رنيم الجهاز، وأمسكت بالدفتر، وكتبت شيئًا ما، ثم أعطته لكريم.

فقال بعد أن قرأ ما كتبته:

- رنيم تقول أنها لم تكن تتوقع أن يؤدِّيَ ما قمنا به إلى ردود الفعل هذه كلها.

فلم يُعقِّب سليم، فأردف كريم:

- لقد تعدَّدَت الآراء، لكن أغلب الناس للأسف رافضون لدعوتنا، ويتَّهموننا بالخيانة، ولا يزالون مُصِرِّين على أفعالهم التي تدمِّر كوكب الأرض.

فهزَّ سليم رأسه في أسف، فتابع صديقه:

- لكن المؤيدين لهذه الدعوة -رغم قلَّتهم- سوف يدفعون العالم إلى الالتفات إلينا، وقد يشكلون قوة ضاغطة تدفع الشرطة إلى إخلاء سبيل آبائنا وإسقاط التهم.

وعندئذٍ قال سليم باقتضاب:

- لا بد أن نفعل شيئًا.

قطَّبت رنيم، ونظرت إلى كريم في تساؤل وهي تناوله الدفتر، فقال:

- ماذا تقصد يا سليم؟

فقال ببطء، وهو يسترجع شعور البلل الذي أحسَّه على قميص والده وهو يعانقه أمسِ بدموعه:

- اللعنة التي ألقاها علينا حارس (أبو الهول) كانت طريقًا لا رجوع فيه، ويجب أن نقطعه حتى النهاية. لقد قلت لك من قبل إنني لم يعد يعنيني أن أستردَّ البصر، وإن كانت الرغبة في الرؤية تعاودني من حين لآخر بحكم التعوُّد، ولكنها لا تقارن أبدًا برغبتي في إنقاذ العالم. ولكن الآن، بعد أن قُبِض على والدي، وعانيت أنت ورنيم مثل ما عانيته، تحوَّل الأمر لديَّ إلى ثأرٍ شخصيٍّ. لن أقبل أن يظل والدي سجينًا لمجرَّد أننا نطقنا بالحق وسعينا إلى الإصلاح. ولذلك يجب أن نفعل شيئًا.

أتمَّ كريم قراءة ما كتبته رنيم، وتساءل:

- وما الذي تقترحه يا سليم؟

فأجابه بحزم:

- سوف نصور فيديو، ونرسله إلى كل الصفحات المهتمَّة بهذا الأمر، والمواقع الإخبارية، لكي ندافع عن الحقيقة، وندعو الناس إلى مؤازرتنا في محاولة إنقاذ العالم. أنت تعلم أن كل الترينداتِ التي تظهر يوميًّا على مواقع التواصل الاجتماعي لا تلبث أن تختفي بعد أن يستهلك فيها الناس طاقة الغضب. أما نحن، فسوف نحاول أن نزكِّي طاقة الغضب، لكي تتحوَّل إلى قوة ضغط، ونتمكَّن من التأثير في توجُّهات الدولة، وكل الدول، لنسير في طريق الإصلاح، وننقذ العالم. وهناك بالفعل شباب وفتيات تحمَّسوا،

وخرجوا في تظاهرات للدفاع عن الأرض، ولا بد لنا من أن نستغلَّ هذا الأمر. وعندئذٍ، تحركت رنيم، ووضعت موبايل كريم على المكتب وفتحت الكاميرا، واقترح كريم أن يجلس سليم على كرسي المكتب في مواجهة الكاميرا، ليتولَّى هو توجيه الرسالة المصوَّرة؛ لأن وجهه أصبح معروفًا على نطاق واسع إعلاميًّا.

فعل سليم ما اقترحه صديقه، واستقرَّ في موقعه أمام الموبايل. شغلت رنيم الكاميرا، ونبَّهه كريم بضربتين رفيقتين على كتفه، فبدأ يتحدَّث.

- ما آخر التطورات يا إيثان؟

- كان هناك في البداية تعتيم إعلامي على اعتقال آباء الأطفال الذي أرادت به السلطات أن تؤثر نفسيًّا على الأطفال وأن تدفعهم إلى الصمت وعدم التفاعل مع هذا الترينـد، إلى أن يستنفد نفسه مثل أي ترينـد آخر، ولكن تم مؤخرًا تداول فيديو يظهر فيه سليم، وهو يشرح بأسلوبٍ مؤثرٍ تجربتَه مع اعتقال والده، ولا سيَّما مع كونه كفيفًا، وأثر هذه التجربة عليه، وأعاد شرح ما تضمَّنه المنشور الخاص بهم، وأضاف إليه رفضه لِمَا يُشاع عنهم من أنهم مضطربون عقليًّا، وذكر أخيرًا شيئًا راق لي: "لنفترض أننا مضطربون عقليًّا، فبِمَ يوصف الذين يدمِّرون منزلهم بأيديهم، وهم لا يملِكون منزلًا في الكون غيره؟ وبِمَ يوصف من يعادون ويضطهدون من يمسك أياديهم المتجهة إلى قلب النار، ويبعدهم عنها، لكيلا يحترقوا. البشر لا يكتفون بالانتحار الهادئ، وإنما يفجِّرون أنفسهم وسط كل الكائنات الحية، ويهدِّدون هذه السيمفونية التي تُعزف منذ مليارات السنين بأن تصمت إلى الأبد".

- يبدو يا إيثان أن الفرصة التي ننتظرها قد حانت. لن نجد أبدًا طريقةً لتجميع العقلاء على إنقاذ العالم أفضل من هذه. أريد منك أن تترجم الفيديو إلى الإنجليزية والفرنسية، وترسله عبر حسابات وهمية إلى كل الشبكات الإخبارية، وصفحات التواصل الاجتماعي الكبرى، وسوف أطلب من خبراء الكمبيوتر لدينا أن يبدءوا في الحصول على المعلومات المطلوبة واستغلالها، وابدأ أنت في تنفيذ الخطة التي اتفقنا عليها، وسوف أوافيك بكل التطورات من حين لآخر لكيلا نضيِّع الوقت.

في هذه اللحظة، كان سليم جالسًا على فراشه في هدوء، بعد أن أفرغ كل طاقته في الفيديو الذي سُجِّل له. وبدا على ملامح رنيم قلق وترقُّب، وهي تتابع ردود أفعال الناس على الفيديو، واحتفاء كثير من الأشخاص المؤثرين، من فنانين وكتَّاب وصانعي محتوى على اليوتيوب، بِمَا ذكره سليم، وكذلك دعوات التظاهر في الميادين الكبرى. وبعد مرور نحو ساعتين من الصمت الذي تتخلَّله تعليقات كريم على ما يراه على شاشة اللاب توب ليشرك سليم في متابعة ما يحدث، بدأ الموبايل في الرنين، بجزءٍ من مقطوعة Pavane لـ(جابرييل فوريه)، لكن كريم لم يلتفت إليه، إذ كان في هذه اللحظة يقرأ السطر الأخير من بوست كتبه أحد الروائيين المشهورين، فنهض من مكانه متحمِّسًا وهو يقول:

- لم يَمْضِ إلا القليل، والقادمُ سيكون أصعب...

وأخذ يتجوَّل في الغرفة، ورنيم تحاول أن تلفت انتباهه إلى رنين الموبايل، لكنه تابع بنفس الحماس:

- ليس أمامنا إلا أن نستمرَّ في هذا الطريق، إلى أن يتوقفَ الناس عن تدمير الطبيعة، فنعود إلى ما كنَّا عليه. ما كتبه ذلك الروائي بثَّ فيَّ الأمل إلى أبعد مدى... ولا أظن أن النـ..

وعندئذٍ وقفت رنيم أمامه مباشرة، وأشارت إلى المكتب، بينما قاطعه سليم هاتفًا:

- الموبايل يا كريم.

فانتفض، والتقط الموبايل من على المكتب بسرعة، ونظر إلى شاشته قليلًا، قبل أن يقول حائرًا:

- إنه رقم مجهول Unknown!

فأخذت رنيم الموبايل منه، وفتحت الخط، وفعَّلت مكبر الصوت، ثم أعطته لسليم، فانبعثَ من سمَّاعةِ الموبايل صوتُ رجلٍ يتحدَّثُ العربية بطريقة ركيكة قائلًا:

- مساء الخير.

فأجابه سليم:

- مساء النور.

فقال الرجل بمودَّة:

- كيف حالك يا كريم؟ أنا هاري وينكلر، كاتب بريطاني، ولقد تابعتُ ما حدث لكم طوال اليوم السابق. هل أنتم بخير؟

- الحمد لله. نحن بخير. ولكن اعذرني يا سيدي. أنا لست كريم. أنا سليم. إن صديقي -كما تعلم- لا يسمع. لكننا على كل حال في نفس الغرفة، ورنيم تكتب لكريم كلَّ ما يدور بيننا.

فقال هاري وينكلر مُطَمئنًا:

- هذا أمر ممتاز؛ فقد أردتُ أن أتواصلَ معكم أنتم الثلاثة، لا كريم وحده، ولكن يبدو أنه هو الوحيد فيكم الذي يمتلك موبايلًا. على كل حال، أردت في البداية أن أخبركم بمدى حزني بسبب ما تعرَّض له آباؤكم، ولكن يجب أن تعلموا أنه لا بد لأي دعوةٍ جديدةٍ من تضحية. والتضحية دائمًا تكون بقدر التغيير الذي تريد الدعوة إحداثه في المجتمع. ودعوتكم ليست هيِّنة. إنها كفيلة بتغيير وجه الحضارة البشرية للأبد. لقد ألهمتم، في أرجاء العالم، كثيرًا من الشباب، الذين استنكروا أن يُحتجَزَ أطفالٌ يدعون إلى إنقاذ كوكب الأرض من تدمير البشر له. ويجب أن تعلموا أن لدينا في الغرب مؤسساتٍ قويةً، تدعو إلى ما طرحتموه في المنشور منذ وقتٍ بعيدٍ، لكنَّ التحرُّكَ الأكبرَ لم يتمَّ إلا بعد أن مُنعتم من توزيع أوراقِكم، وقُبض عليكم، واستُخدِم العنف في التعامل معكم، ثم اعتُقِل آباؤكم. إن هاشتاج (#أنقذوا_الكوكب #Save_the_planet) هو الأكثر تداولًا اليوم على وسائل التواصل الاجتماعي، وهناك دعوات لمقاطعة وسائل المواصلات غدًا في بريطانيا وفرنسا، والتنقُّل باستخدام الدراجات فقط، بالإضافة إلى الامتناع عن التدخين، ومقاطعة مطاعم الوجبات السريعة التي تُدَمِّر الصِّحَّة. لقد أصبحتم رمزًا عظيمًا يلتفُّ من حولِهِ كلُّ من يُريدون الإصلاحَ في هذا العالم، والذين يقفون في مواجهة جموع المفسدين التي لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم، فيما يتعلَّق بمصير هذا الكوكب.

فقال سليم مندفعًا كعادته:

- لقد تحرَّكنا يا سيدي بدافعٍ من ضمائرنا، بالإضافة إلى أننا حين كنَّا في

زيارة للأهرامات، دخلنا إلى...
فقالت رنيم معترضةً:
- امممممم.
وهي تضع يدها على فمه، لتمنعَه من مواصلة الكلام، خوفًا من أن يُفشيَ سرَّهم. ففهم سليم بسرعةٍ مقصِدَها. لكن هاري وينكلر تساءل بفضول:
- وماذا حدث لكم في منطقة الأهرامات؟
فقال سليم:
- في منطقة الأهرامات... امممم... في منطقة الأهرامات. تأمَّلنا بالطبع عظمة الحضارة التي بناها المصريون القدماء، وأناروا بها طريق البشرية، منسجمين مع البيئة، دون أن يستنفدوا عناصرها ويدمروها كما فعلنا. تلك الحضارة التي لم نستفِد للأسف من عظمتها، ولا من المنجزات الحضارية التي أعقبتها، وأفسدنا الكوكب إفسادًا كبيرًا. ولذلك اتفقنا على أن نقومَ بأيِّ تغييرٍ مهما يكن بسيطًا.
فتنهَّدَت رنيم في ارتياح، ووضعت يدَها اليمنى على صدرها بعد أن استطاع سليم تجنُّبَ التصريح بما حدث لهم داخل التمثال.
وقال هاري وينكلر:
- وأنا أحييكم على رؤيتكم. ولذلك اسمحوا لي أن أدعوكم باسم إحدى أكبر الجمعيات المطالِبة بخفض الانبعاثات الكربونية، في بريطانيا؛ وهي جمعية ينتمي إليها أكثر من عشرين عالمًا وأديبًا فازوا بجائزة نوبل. ندعوكم باسم هذه الجمعية، إلى حضور القمَّة العاجلة التي ستُعقَد في الأمم المتحدة نهاية هذا الأسبوع، بنيويورك، بحضور قادة العالم، لمناقشة سُبُل

التغلُّب على المخاطر التي تُهدِّد كوكب الأرض، ونريدكم أن تتحدَّثوا عن رؤيتكم بخصوص قضايا الزيادة السكانية، وارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض، وتلويث البحار والمحيطات، وانقراض الفصائل النادرة الذي يتسبَّب فيه البشر، وتهاون الحكومات مع مصانع السجائر رغم تأثيراتها المدمِّرة، ومطاعم الوجبات السريعة، والأغذية المضرَّة بالصحة. ندعوكم إلى التحدُّث باسم جمعيتنا أمام قادة العالم. أنتم رمزٌ لدعوتنا، ونرجو أن توافقوا على الانضمام إلينا.

فقال سليم متردِّدًا:

- هذا شرف عظيم. ولكن...

- أعرف تمامًا الصعوبات التي ستواجهكم، ولا سيَّما أن وجوهكم أصبحت معروفة إعلاميًّا، والسلطات لن تسمح أبدًا بسفركم إلى الخارج بعد القبض على آبائكم، ولذلك كلَّفت إيثان، وهو أحد عملائنا السريين بالشرق الأوسط، بأن يتواصـ..

فقاطعه سليم قائلًا في دهشة:

- عملائكم السريين!

ضحك هاري وينكلر ثم قال:

- أجل يا سليم. هل من المنطقي أن يكون لدى من يفسدون كوكب الأرض أجهزة مخابرات وأسلحة وجيوش، ولا يكون لدى المصلحين ما يواجهون به طغيان المفسدين؟! ولذلك كان لجماعتنا نشاط مُعلَن، ونشاط سري. ويجب أن تعلموا أن ما فعلتموه اختصر من جهدنا سنواتٍ وسنواتٍ. لقد ظللنا طويلًا ننتظر الفرصة المناسبة... ننتظر ظهور الشخصية

المؤثرة... الأيقونة التي سيجتمع حولها كلُّ الدَّاعين إلى الإصلاح في مواجهة المفسدين. لم تكن جريتا تونبرج إلا مجرَّد شرارة عابرة، لم نحسن استغلالها، وسرعان ما احتوتها الحكومات، بأسهل حيلة ممكنة للقضاء على الأصوات المعارضة... إغراقها بالشهرة، وإيهام الرأي العام بتأييدها! كان على نشطاء المناخ أن يكونوا أكثر حزمًا، بل وعنفًا إن لزم الأمر. وسرعان ما تحولت الصحوة العابرة إلى غفوة جديدة، وانتصار آخر للمفسدين في رحلة تدميرهم للعالم. وهو ما انتبهنا إليه في جماعتنا، فقررنا لذلك أن نكثف العمل السري. أنتم الأمل، وقريبًا نلتقي في نيويورك. لقد أخبرت إيثان بأن يتوجَّه إليكم، وسوف يقوم بعمل اللازم. ولا تقلقوا... لقد وضعنا كل الاحتمالات الممكنة أمامنا، ولن ندع أبدًا فرصة للخطأ. سأنتظر مكالمةً من إيثان للتأكيد على استعدادكم للسفر، وأتمنى لنا جميعًا أن ننجح هذه المرة في إيقاف المفسدين عند حدِّهم.

فقال سليم:

- نشكرك جزيلًا يا سيدي على هذه الثقة، وأعدك بأن نبذل كل ما في وسعنا لإنجاح الخطة.

- حسنًا يا أيها الأبطال. سوف أنتظركم. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

ومدَّ سليم يدَه بالموبايل، فأخذته منه رنيم، وأغلقت الخط، ثم جلس على الفراش وتنهَّد. فلاحظ كريم شروده، فسأله:

- ما لك يا سليم؟!

فأجابه، ورنيم تدوِّن ما يقوله:

- أنا خائف! لم أكن أتوقَّعُ أن تصلَ الأمورُ إلى هذا الحد!

فقال كريم متعجِّبًا بعد أن قرأ ما كتبته رنيم:

- أليس هذا ما أردناه يا صديقي؟! أليست هذه هي الطريقة التي سنُنقذ بها الكوكب، ونستعيد نحن بها السمعَ والبصرَ والنطق، ويخرج بها آباؤنا من السجن؟!

- لكنني ظننتُ أن مهمتَنا قاصرةٌ على بلدنا فقط. ولذلك يريبني هذا الاتصال!

- وهل كوكب الأرض ليس فيه إلا بلدٌ واحدٌ فقط يا سليم؟ إن في كوكب الأرض عشرات البلدان التي يدمِّر مواطنوها الطبيعة. لا يجب أن ترتابَ من هذه الدعوة. كما أنك كنت أكثرنا حماسًا من البداية، بل وقلت أنك لا يهمك حتى أن تستردَّ بصرَك، لأن مصيرَ الكوكبِ أهم من مجرد عينين أو أذنين أو صوتٍ مفقودٍ.

فأطرق سليم قليلًا قبل أن يقول:

- لكنني شعرتُ بالرهبة بعد انتفاض وسائل الإعلام ضدَّنا، ومهاجمتنا، واتهامنا بأننا مأجورون وعملاء، وأننا نسعى إلى نشر الفوضى وقلب نظام الحكم، ولذلك اقترحت عليكم أن نبث ذلك الفيديو للدفاع عن أنفسنا وعن قضيتنا.

- قضيتنا أكبر من هذه الاتهامات يا صديقي. إنهم يرموننا بهذه الأوصاف لأن من مصلحتهم أن يُدمَّرَ الكوكب، ليجنوا أكبر المكاسب، من تجارة الأسلحة، وتجارة الوقود، بل وتجارة المخدرات. لا تقلق يا صديقي... نحن على حق.

فهزَّ سليم رأسه وقال:

- لا أزال مرتابًا يا كريم. أنا لم أسمع من قبل باسم هذا الرجل الذي اتصل بنا. هاري وينكلر! إنه بريطاني، وأنا أظنُّ أن ما حدث معنا في قسم الشرطة، ومعارضة كثير من الناس لدعوتنا، شئونٌ تخصُّ مصر فقط. ولا أريد أن أتسبَّبَ بأيِّ إحراجٍ لمصر في أي مكان بالعالم.

فربَّت كريم كتفه وهو يقول:

- اعلم يا سليم أن الحارس طلب منَّا أن ننقذ كوكب الأرض؛ أي أن نخاطب كلَّ البشر، لا أهلنا في مصر وحسب. لا تشكَّ في نوايا هاري وينكلر. أنا أثق في كلامه. وأنت نفسك كنت مقتنعًا بكلامه وهو يحدثنا، بل وأبديت حماستك، فما الذي غيَّرك؟!

وبدأت رنيم تكتب شيئًا ما في الدفتر، ثم أعطته لكريم ما إن انتهت، فقال:

- رنيم كتبت أنها سوف تبحث حالًا عن هاري وينكلر على شبكة الإنترنت.

وبالفعل، جلست رنيم إلى المكتب، وفتحت اللاب توب، وبحثت بسرعة عن اسم (هاري وينكلر)، فظهرت صورة رجل أشقر يرتدي نظارة مربعة العدسات وله لحية بنية قصيرة. وكان كريم واقفًا خلفها، فأخذ يقرأ المعلومات المتاحة عن هاري وينكلر بصوتٍ مرتفع:

- هاري وينكلر. كاتب بريطاني، وأستاذ في جامعة كامبريدج، بقسم اللغات الشرقية. صدر له عشرون كتابًا في مواضيع شتى، يتناول أغلبها نشأة الحضارات، والتاريخ الجيولوجي لكوكب الأرض، ومخاطر الاحتباس الحراري. وهو رئيس جمعية (حماة كوكب الأرض) المشهورة بمناهضتها لاستخدام الوقود الأحفوري، والدعوة إلى الحفاظ على الطبيعة.

ومخاطبًا سليم:

- ليس لديك حجَّة الآن لترتاب في هذا الرجل، أو لأن تحمل في صدرك أيَّ مخاوف.

فقال سليم مبتسمًا:

- أنت محقٌّ يا صديقي. لا أعرفُ ماذا دهاني! يجبُ أن نمضي في هذا الطريق حتى النهاية. لا مجالَ للتراجع. لقد صوَّرنا الفيديو الذي أعلنَّا فيه رؤيتنا لإصلاح العالم، ووافقنا على مشاركة هاري وينكلر في خطته. لا مجال للتراجع... نحن ننفخ في بالون... أجل... ولن يكون انفجاره مدوِّيًا إلا إذا وصل إلى أقصى قدر من الانتفاخ. وعندئذٍ لن يكون لسجن آبائنا من قيمة، حين تعلم السلطات أن سجنهم لم يكسرنا ولم يؤثر في عزيمتنا، وأن دعوتنا أصبح لها صدًى أعلى.

فهمهمت رنيم بنبرةٍ موافقةٍ، وقال كريم:

- أؤيدك تمامًا يا سليم... لا يجبُ أن نخافَ من شيءٍ... ولا بد من...

قطع كريم حديثه بَغتةً بإشارةٍ من رنيم؛ فقد دوَّى جرس باب الشقة، ففارقت الغرفة مسرعةً لكي تفتحه، وكريم مندهش ممَّا فعلته. أخذ يراقبها وهي تتجه نحو باب الشقة، الذي كانت والدة سليم متجهة هي الأخرى نحوه، لكن رنيم سبقتها، وفتحت الباب. وسرعان ما دلف منه رجل أوروبي الملامح، أدرك كريم سريعًا أنه هو العميل السري المنشود!

الفصل التاسع

المطار

- أنا إيثان كريمر.

قالها الرجل ببساطة وهو يضع حقيبته الضخمة في منتصف غرفة سليم، ويجلس على المقعد المجاور للنافذة.

كانت والدة سليم متعجبة في البداية من مجيئه، لكن سليم طمأنها، بعد أن أخبره كريم بدخوله من باب الشقة، وقال لها أنه صديق سوف يساعدهم في هذه المحنة التي يمرُّون بها. فاقتنعت على مضض، وذهبت للجلوس في الصالة، بينما أغلقت رنيم الباب، وجلست على السرير الآخر.

لمَّا تأخَّرت استجابة الأطفال لتقديم إيثان لنفسه، قال ممازحًا بعربيته الركيكة:

- لقد أخبرني البروفيسور هاري وينكلر بتعجُّبكم من وجود عملاء سريين لدى جمعية حماة كوكب الأرض، ولكن اطمئنوا أنا لست جيمس بوند.

ابتسمت رنيم وهي تكتب ما يقوله بجوار كريم، وتابع إيثان:

- لكن هذا لا يمنع أن لدينا جناحًا عسكريًّا سريًّا، يتم إعداد أفراده للمعركة القادمة مع حكومات العالم في سبيل إنقاذ الأرض. لكن هذا ليس دورنا كعملاء سريين. أنا مثلًا أتولَّى جمع المعلومات بخصوص معدل استهلاك

الوقود الأحفوري في دول الشرق الأوسط، والتغيرات الجيولوجية المحتملة، ولا سيما بالقرب من الشواطئ، ونسب الانبعاثات الكربونية، ومدى تأثر الغلاف الحيوي من نباتات وحيوانات بالتلوث داخل نطاق الشرق الأوسط، وقد انتقلت إلى الإسكندرية بعد وقوع التسونامي لكي أدرس طبيعة التغيرات المناخية لديكم وآثارها قصيرة وبعيدة المدى. يمكنكم أن تعتبروا ما أفعله يشبه بعثةً علميةً إذا كان استخدام مصطلح (عميل سري) يثير قلقكم. ولقد استدعت الحاجة هذه المرة أن أعمل على تيسير سفركم إلى نيويورك؛ لأن وجودكم في الأمم المتحدة، كممثلين لجمعيتنا، سوف يوجِّه دفة الأحداث لصالحنا، وسوف نتمكَّن من فرض شروطنا على حكومات العالم.

فقال سليم:

- وكيف سنتمكَّن من السفر؟ أنا لم أسافر إلى الخارج من قبل، ولا أملك جواز سفر، وكذلك كريم. قد تكون رنيم سافرت إلى الإمارات من قبل، ولكنها لا تملك حاليًّا جواز سفرها. وحتى لو كنا نملك جوازات السفر، فقد أصبحت وجوهنا معروفة، ولن يُسمح لنا بالخروج من المطار، هذا إذا لم يتم القبض علينا اليوم بسبب ما يثار من ضجةٍ بسبب الفيديو الذي بثثناه اليوم.

فابتسم إيثان وهو يقول:

- ومن قال إنكم سوف تخرجون من المطار بأسمائكم، أو حتى بوجوهكم؟!

فأصدرت رنيم همهمةً متعجبة. وقال كريم بعد أن رفع عينيه عن الدفتر:

- ماذا تقصد؟!

فأجاب إيثان:

- كل شيء أصبح جاهزًا.

وفتح حقيبته، وأخرج منها ثلاثة جوازات سفر لونها كحلي، وأعطى سليم واحدًا وهو يقول:

- أنت آرون ويليامز.

وقال لكريم:

- وأنت بريان ويليامز.

وقال لرنيم:

- وأنتِ تارا ويليامز.

ورفع ذراعيه عاليًا وهو يقول في مرح:

- معكم الآن أقوى باسبور في العالم... وأنا كما توقعتم مستر ويليامز، والدكم!

ومستطردًا:

- كل شيء الآن أصبح ممكنًا باستخدام البرامج التي لدينا، والتي تعمل بواسطة الذكاء الاصطناعي. لو نظر كلٌّ منكم إلى صورته...

وقطع كلامه بغتةً؛ فقد حانت منه التفاتة إلى رنيم، فوجدها تنظر إلى جواز سفرها مضيِّقةً عينيها، فسألها:

- هل تواجهين مشكلةً ما يا رنيم؟

فرفعت رأسها إليه، وهمهمت، فاستشفَّ كريم مغزى سؤاله، فقال:

- أثناء القبض علينا، داس الضابط على نظارتها فحطَّمها، ورنيم لا تستطيع الرؤية بوضوح بدون النظارة.

فسألها إيثان:

- هل لديك نظارة بديلة؟

هزت رأسها نافيةً، فقال مُطمئنًا:

- إذًا سيكون الحصول على نظارة جديدة لك من أولوياتنا حين نصل إلى نيويورك.

ومشيرًا إليهم جميعًا بإصبعه:

- ستيسِّر لنا جوازات السفر هذه مهمة الخروج من مصر، وقد استخدمنا -كما أخبرتكم- برامج تعمل بالذكاء الاصطناعي لتغيير ملامحكم. هناك بعض التعديلات في لون الشعر والبشرة، وكذلك طريقة تصفيف الشعر. لقد حصلنا على الصور باختراق كمبيوتر مدرستكم، وأجرينا عليها بعض التعديلات. كما اخترقنا كمبيوتر شركة الطيران، وزيَّفنا تاريخ قدومكم إلى مصر، واشترينا لكم تذاكر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي وضعنا أيضًا أسماءكم في سجلَّات المسافرين فيها، لكيلا نثير الشكوك، والآن، لم يبقَ إلا شيءٌ واحد.

وأخذت رنيم وكريم يراقبانه وهو يُخرج من حقيبته بعض مستحضرات التجميل وأدوات التنكُّر، ويضعها بهدوء على المكتب، ثم أشار إليها وهو يقول:

- الخطوة الأخيرة قبل السفر.

ابتسمت رنيم، وهز كريم رأسه وهو يقول لسليم:

- يبدو أننا سنصبح مواطنين أمريكيين يا صديقي!

خمَّن سليم ما يقصده كريم، وخاصةً بعد أن ربط بينه وبين اختلاف صورهم

في جوازات السفر عن الحقيقة. وتأكَّد له فعلًا أن هذا هو طريق اللاعودة. إما أن ينتصروا هذه المرة، وإما أن يتحوَّلوا إلى مجرد صرخة عابرة في مسيرة التدمير التي لا تتوقف منذ الثورة الصناعية!

لم يتوقَّع كريم أن يجد المطار مزدحمًا في الحادية عشرة مساءً، وحين قال ذلك لسليم، لم ينتبه إليه؛ فقد كان شاردًا بسبب توديعه أمه بنفس الطريقة التي ودَّعه بها والده... نفس الظلام الذي يمتزج به الدفء بالدموع بالرهبة من أن يكون هذا هو اللقاء الأخير، والسفر الشاق من الإسكندرية إلى القاهرة، ثم الانتظار لساعات في المطار... أعاد عليه كريم نفس الملاحظة، ثم قال له مداعبًا وهو يحاول أن يبدد عنه مشاعر القلق:

- I am sorry, my friend. I shouldn't have spoken to you in Arabic because you're American.

فابتسم سليم، وهو يمسح على شعره المصبوغ بالأصفر، بينما قال لهم إيثان (الذي أصبح يسمَّى مستر فرانك ويليامز) بالإنجليزية:

- لا أريد أن تفلت منكم أي كلمة بالعربية، ولا تنسوا أبدًا أسماءكم، أو أنكم أبنائي.

فأومأ إليه سليم ورنيم موافقين، وخمَّن كريم فحوى قوله.

وما مرَّت دقائق، إلا وهم واقفون أمام الموظف المسئول عن مراجعة البيانات، فأعطاه إيثان جوازات السفر، وأخذ يحدثه بخصوص بعض المعالم السياحية التي أعجبته في مصر، محاولًا تشتيته عن الاهتمام بالنظر إلى الأطفال، لكن الموظف لم يُجارِه في الحديث، ونظر إلى سليم

في شك، لكن سليم لم ينتبه إلى نظرته لأنه كفيف، إلا أن كريم ارتاب في هذه النظرة، فداس على قدم سليم برفق، فخمَّن سليم أن هناك شيئًا على غير ما يُرام، فأمال رأسه قليلًا وهو ناظر إلى أعلى، حيث الموظف، وسمعه يقول بالعربية:

- أريدك أن تذكر لي اسمك كاملًا؟!

فتذكر سليم نصيحة إيثان، فقال بشجاعة، بالإنجليزية:

- Excuse me sir, I don't speak Arabic.

فأومأ الموظف، وختم جوازات السفر، وهو يقول في نفسه:

- يخلق من الشَّبه أربعين!

وفي الواقع، لم يكن التغيير الوحيد الذي أجراه إيثان في ملامحهم، لكي تطابق صورهم المعدَّلة، هو لون الشعر فقط؛ فقد وضع لهم ماسكات من أكثر من طبقة لتغيير لون البشرة، وغير من شكل الحواجب، وطريقة تصفيف الشعر، وأضاف حسناتٍ ونمشًا إلى وجوههم، وأما سليم خصوصًا، فقد ألصق بأنفه قطعةً من السيليكون لتغيير شكله! وبذلك تمكَّنوا من الخروج من المطار، وسرعان ما كانت الطائرة في الجو متجهة إلى نيويورك، والأصدقاء الثلاثة جالسون في مقاعد متجاورة، يفكرون في معركتهم القادمة.

الفصل العاشر

في الأمم المتـَّحدة

خلال الأيام القليلة الفاصلة بين المكالمة التي دعا فيها هاري وينكلر الأصدقاء الثلاثة إلى الانضمام لجمعية حماة كوكب الأرض، وبين موعد انعقاد جلسة الأمم المتحدة، حدثت تطوُّرات لم يتخيَّلها أحد!

امتدَّت الإضرابات ومقاطعة وسائل المواصلات التي تعمل بالوقود الأحفوري، بل وحتى الطائرات، إلى دول أكثر، وقرَّر ناشطو المناخ أن يتحوَّلوا من مجرَّد صوتٍ زاعقٍ يسهل على أي حكومة أن تُهَمِّشَه وتُسكِتَه لتنفِّذ أجندتها، إلى مجموعةٍ من الأفعال الإيجابية على أرض الواقع، وكان طبعًا الجناح السري لجمعية حماة كوكب الأرض هو اللاعب الخفي في أغلب هذه التحركات.

ومن خلال التنسيق المشترك بين الجمعيات الداعية لإنقاذ الأرض، نُظمت مسيراتٌ حاشدةٌ، واضطرَّ بعضها، بالقوة أحيانًا، إلى فرض عدم استخدام السيارات، ومحاصرة المصانع ذات الانبعاثات الكربونية الهائلة.

وكانت النتيجة أن حكومات الدول التي اندلعت فيها الاحتجاجات بدأت تستشعر خطورة الموقف، ولا سيَّما بعد أن تدنَّت مؤشرات البورصة إلى أرقام غير مسبوقة، وأصبحت شركات السيارات والتبغ ومطاعم الوجبات السريعة مهدَّدة على نحو غير معهود.

وبعد أن كان مُقدَّرًا للمؤتمر العالمي، الذي سيُعقد في الأمم المتحدة، أن

يكون مجرَّد تحصيل حاصل، كغيره من المؤتمرات التي سبقته، أصبح ضرورة، وخصوصًا حين أعلنت جريتا تونبرج في فيديو جديد، تأييدها لدعوة الأصدقاء الثلاثة، وتأكيدها على أن هذه ربما تكون الانتفاضة الأخيرة للعقلاء قبل فوات الأوان.

لمَّا وصل كريم وسليم ورنيم وإيثان إلى الفندق، واستقرَّ كلٌّ منهم في غرفته، حرص إيثان على أن يعيد ملامحهم إلى ما كانت عليه، وذلك قبل أن يقابلوا هاري وينكلر، الذي كان في انتظارهم بلوبي الفندق.

لما انتهى إيثان، وأصبح الأطفال مستعدين، نزلوا جميعًا إلى هاري، فحيَّاهم بحرارة، وجلسوا معًا على أريكتين وثيرتين، بينما انفصل عنهم إيثان لينفذ بعض التعليمات، بعد أن طلب من رنيم أن تكتب له على قصاصةٍ صغيرةٍ قياسات عدسات نظارتها. وظلَّ كريم مطرقًا للحظات، شاعرًا بالندم لاضطرارهم إلى استخدام الطائرة، الملوثة للبيئة، في طريقهم إلى إنقاذ الأرض! لكن صوت هاري وينكلر أخرجه من شروده:

- نعتذر لكم في البداية على هذا القدر من التوتر الذي سببناه لكم، وأعلم جيدًا أن تجاوز موظفي المطار لم يكن سهلًا، كما أن ساعات السفر الطويلة لا بد أنها أرهقتكم، ولذلك لن أطيل عليكم.

واستطرد قائلًا وهم يمسح على لحيته:

- هذه المرة تختلف تمامًا عن كل الصحوات السابقة، التي كان آخرها ما قامت به جريتا تونبرج قبل ست سنوات، في عام ٢٠١٩. إن قادة العالم مدركون جيِّدًا أن كلَّ دعوات الحفاظ على الأرض وتقليل الانبعاثات

الكربونية لا قيمة لها، لأننا لا نملِك قوةً عسكريةً ولا اقتصادية، وهاتان القوتان فقط هما اللتان تملِكان القدرة على التغيير الفعَّال... ولذلك ذهبَتْ كلُّ دعواتنا سُدًى في الماضي. لكن هذه المرة -كما قلت لكم- تختلف... لقد بدأ كثير من الناس يتعاطفون مع دعوتكم، وأصبحت لنا قوة ضاغطة ملموسة في الشارع، وبدأت الشركات الكبرى الجشعة تستشعر خطرنا... إن ملصقًا تافهًا يدعو إلى خفض الانبعاثات الكربونية، لن يكون أبدًا بنفس تأثير إغلاق مصنع يلوث البيئة بالقوَّة، أو تمزيق إطارات سيارة تنشر ثاني أكسيد الكربون في كل مكان. لقد انتبه العالم بفضلكم إلى الأخطار التي تُحدِق به، ويوم الخميس هو يوم الحسم، مثلما أتمنَّى.

فسأله سليم:

- وماذا سنفعل في ذلك اليوم؟

فأجابه هاري وينكلر:

- الأمر في غاية البساطة... سوف نذهب معًا إلى مقر الأمم المتحدة، ونجلس في القاعة الرئيسية، ثم تنتظرون أن توجَّه إليكم الدعوة لإلقاء كلمتكم، وبعد ذلك سوف نتحرَّك نحن... إن جناحنا العسكري السري ينتظر هذه اللحظة ليوجِّه الضربة الحاسمة الكفيلة بأن تلزم كل الحكومات باتخاذ إجراءات ملموسة لإنقاذ الأرض.

قرأ كريم ما كتبته رنيم، فقال مندهشًا:

- هل وصل بنا الأمر أن نتبنَّى وسائل الإرهابيين في تحقيق أهدافهم، بترويع الأبرياء، وإثارة الرعب في المجتمع؟!

فابتسم هاري وينكلر مُطَمئنًا وهو يقول:

- لا تقلق يا كريم... لن يصل الأمر بالتأكيد إلى القتل، ولكن للحسم صورًا أخرى كثيرة. لقد فقدت الكلمة قيمتها، ولم يعد للصياح أي تأثير في من يملِكون السلاح والقوة الاقتصادية. هم لا يملكون المنطق، ويهمشون من يحاورونهم بالمنطق، منجرفين وراء طمعهم الذي لا يهدأ. وما دام المنطق لا يصلح للتفاهم معهم، إذًا فلنعاملهم بما يفهمونه... القوة. وسوف تندهش ممَّا نحن قادرون على فعله. كل ما في الأمر أننا كنا ننتظر المناخ المناسب للتحرُّك، وهذا التوقيت هو الأنسب على الإطلاق.

هزَّت رنيم رأسَها موافقةً، وهي تتمنَّى أن تثمر جهودهم، وأن تستردَّ صوتها لتعبِّر عن امتنانها لأصدقائها ولكلٍّ من ساندها هي وصديقيها في محنتهم، وتلألأت دمعة في عينها، فربَّت كريم على كتفها مُؤازرًا، ثم قال لهاري وينكلر:

- النصر قريب.

وبدت نظرات سليم شاردةً... فسوف يُوضَع يوم الخميس في موقفٍ لم يتخيَّل طوال حياته القصيرة أن يجدَ نفسه فيه. سيُلقي كلمةً أمام قادة العالم في الأمم المتحدة، وسوف يكون مصير الأرض معلَّقًا بالكلمات التي سيقولها... وأخذ يتمنَّى في سرِّه أن يمضي اليوم على خير، وأن تتحقَّق كل أمنياته.

في القاعة الرئيسية للأمم المتحدة، كان الأصدقاء جالسين في مقاعدهم ينتظرون أن تُوَجَّه الدعوة إليهم. وضع سليم ورنيم سماعات الترجمة في آذانهما، بينما وضعها كريم أمامه، وأخذوا يتأمَّلون المنصَّة التي كان

يجلس من خلفها رجلٌ مُسِنٌّ، يرتدي بذلة سوداء، ثم انتقلوا عنها بأعينهم إلى تفاصيل القاعة المليئة بالمراسلين والمترجمين وفلاشات الكاميرات، والرؤساء الجالسين في مقاعدهم، والمندوبين. وكان سليم خائفًا، وقلبه ينبِض على نحوٍ لم يعتده قط، لكنه أغمض عينيه، ليضيف إلى ظلام العمى، ظلامًا أشدَّ قتامةً، ودَّ لو يجد فيه بعض الطُّمأنينة، وأخذ يتنفَّس ببطءٍ ليستجمع شجاعته.

سرعان ما هدأت القاعة بعد كلمة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، الذي ينتمي إلى الحزب الجمهوري، والذي هوَّن من شأن التغيُّرات المناخية، فأثار اعتراضَ بعض الحاضرين. وبعد دقائق، انبعث صوت الأمين العام يقول عبارةً بالإنجليزية، صاحبَتها على الفور الترجمة العربية بصوت أنثوي يقول:

- نشكر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الموقَّر على خطابه. والكلمة الآن لممثل جمعية (حماة كوكب الأرض Earth Guards).

نهض الأصدقاء معًا من مقاعدهم، ومشوا صوب المنصَّة، وأياديهم متشابكة، وجميعهم يرتدون ملابس بيضاء، بينما كانت رنيم تلفُّ حول عنقها شال جدتها الأزرق. وكانت أنظار الحاضرين متوجِّهةً نحوهم في دهشة؛ فقد ظنوا أن ممثل جمعية (حماة كوكب الأرض) سوف يكون رجلًا أو امرأة، ولم يتوقع أحدٌ أن يمثل الجمعية ثلاثة أطفال صغار!

صَعِدوا معًا إلى المنصَّة، وجذبت رنيم برفق ذراع سليم ليكون في مواجهة الميكروفون، ووقفت عن يساره وهي تعدل وضع نظارتها الجديدة، بينما كان كريم عن يمينه. وتردَّدَت في القاعة همهماتٌ كثيرةٌ، يصاحبُها التماعُ

فلاش الكاميرات على أوجه الأصدقاء الثلاثة.

تنفَّس سليم بعمق، ولوهلةٍ مرَّ بخاطره أن أهمَّ كلماتٍ سينطق بها في حياته، لن يكون قادرًا على أن يرى ردَّ فعل مَن سيسمعها! لكنه بدَّد هذه الفكرة العارضة سريعًا، وبدأ يتحدَّث، والكلمات التي حفظها البارحة، بعد أن ناقش فيها صديقيه وهاري وينكلر، تتدفَّق في عقله شيئًا فشيئًا. كان صوته في البداية متهدِّجًا، غير أنه أخذ يكتسب القوة بالتدريج:

- لقد أتينا اليومَ بناءً على دعوةٍ كريمةٍ من البروفيسور هاري وينكلر رئيس جمعية (حماة كوكب الأرض). ولعلَّ أغلبكم يعتقد أننا جئنا من مصر. لكننا في الواقع لم نأتِ من مصر... لمن نأتِ من مصر... إن الانتماء المحدود إلى الدول يجعلنا نسيء إلى الكيان الهائل الذي يجمعنا... كوكب الأرض... ويجعلنا نغرق أنفسنا في خلافات وحروب تزيدنا تشتتًا عن هدفنا الموحَّد... لم نجئ من مصر لأن أوراقنا وبياناتنا تقول أننا لا نزال هناك؛ وذلك لأننا هربنا من الظلم بجوازات سفر مزوَّرة؛ ولعلكم ستتعجبون من هذا، ولكننا كنا خائفين من بطش نظامنا الحاكم الذي لم يتورَّع عن إيذاء أطفال مثلنا واعتقال آبائنا، لاجئين إلى هذا البلد الذي سمعنا أنه كان ذات يوم ملاذًا للاجئين وأرضًا للحرية، ونتعشم أن يكون بالفعل كذلك، وألا يكون ما سمعناه مجرَّد دعاية وأكاذيب روَّجتها الأفلام ووسائل الإعلام... ولكن، دعونا نتحدَّث بالمنطق. هل تعبِّر الورقة أو الرقم أو الاسم بحقٍّ عن كينونة الإنسان؟! هل وُلدنا وعلى جلودنا أسماؤنا وأرقام جوازات سفرنا وجنسياتنا وأديانا؟ أم إننا كائنات ككل الكائنات، لا يميزنا عن الجماد إلا شعاع الحياة والإدراك الذي سرى في أجسادنا؟ لذلك

أنفي عن أنفسنا أننا جئنا من أي دولة، بل وأستنكف أن نُنسَب أصلًا إلى أي دولة... نحن مثلكم، جئنا من بطون أمهاتنا، بدونِ اختيارٍ منَّا، إلى هذا الكوكب المدهش الذي تدعم بيئتُه تنوُّعَ صورِ الحياة. كوكبٌ لم يُفرِّق بين بلدٍ وبلدٍ أو بين كائنٍ حيٍّ وآخر، ولم يضع حدودًا بين إنسانٍ وآخر... ثم تعلَّمنا بعد ذلك أن هذا الكوكب مهدَّد. نحن لا ننتمي إلى قريةٍ أو محافظةٍ أو بلدٍ. نحن ننتمي إلى هذا الكوكب الذي نشأ من هذا الكون. لقد أصبحنا كائناتٍ عاقلةً، لغايةٍ عُظمَى، هي الحفاظ على التوازن البيئي، والعناية بكلِّ عناصره. لكننا للأسف خُنَّا الأمانة، وأصبحنا -كبشرٍ- الخطرَ الأكبرَ الذي يهدِّدُ الحياةَ على هذا الكوكب. فخلال الأعوام الخمسمائة الأخيرة، تسبَّبنا في انقراض ٣٢٢ نوعًا من الكائنات الحية، وهناك أنواع تنقرض قبل أن نكتشف وجودها أصلًا! هل تدركون حجم هذه المأساة؟ ومنذ انطلاق الثورة الصناعية، وحرارة كوكب الأرض في ارتفاع مستمر، بسبب انبعاثات ثاني أكسيد الكربون التي تؤدي إلى ظاهرة الاحتباس الحراري. وبرغم هذا، لا يزال الوقود الأحفوري هو مصدر الطاقة الرئيسي في هذا العالم! أعدادُ البشر في ازديادٍ غيرِ محكوم، وهذا الأمر سيُؤدِّي إلى وقوع كوارث إنسانية؛ مجاعات، ومشكلات اجتماعية، وحروب؛ بسبب النزاع حول الموارد المحدودة. لا تزال حكوماتُ العالم تدعم وجود الأغذية المصنَّعة والوجبات السريعة ومصانع السجائر والكحوليات، وتتغاضى عن تجارة المخدرات، برغم أضرارها البالغة على صحة البشر. لا بد لنا من وقفةٍ بإزاءِ كلِّ هذه الأخطار. ونحن -لحسن حظنا- وُجِدنا في زمنٍ استثنائيٍّ، لا نكتفي فيه برصد هذه الكوارث، والتفكير في حلولٍ لها،

بل إن لدينا حلولاً بالفعل، توصَّلنا إليها، ونثقُ في كفاءتها. أصبح توليد الكهرباء عن طريق الألواح الشمسية ومولِّدات طاقة الرياح أمرًا متيسِّرًا، وتطوَّرَتْ تكنولوجيا السيارات الكهربائية، والتي تعمل بالطاقة الشمسية. لدينا خططٌ واضحةُ المعالم للحدِّ من الانفجارِ السكانيِّ، ومحاربةِ العادات الغذائيةِ المدمرةِ للصحة. لا تنقصنا إلا الشجاعة لكي نواجهَ أخطاءَنا ولكي نتغلبَ على كل هذه التحديات. الكوكب يستغيث، فهل ستستمعون إلى صرخته المستنجدة؟ الكوكب يستغيث، ولكن -هذه المرة- بأصواتنا. فاستمعوا الآن إلى أصواتنا الطفولية، لكيلا تُضطروا فيما بعد إلى سماع استغاثة الكوكب بصوت الأعاصير والبراكين والزلازل وصراخ الأطفال الذين سيعانون من المجاعات والجفاف والفيضانات التي ستغزو بلاد العالم. الكوكب يريد إسقاط البشر... إسقاط استبدادهم وطمعهم وظلمهم وجهلهم... لأن التخلص من هذا الفساد هو السبيل الوحيد لاستمرار الحياة على هذه الكوكب العبقري قبل فوات الأوان. كلُّ يومٍ يمرُّ علينا دونَ أن نتحرَّكَ سوف يختصِرُ من عمر هذا العالم ألفَ سنة. أنتم من بيدكم التغيير، فتحرَّكوا، وارفضوا تدميرَ هذا العالم.

ضجَّت القاعة بالتصفيق، وبدا على وجه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كأنه تعرَّض لصفعة موجِعة. ونزل الأصدقاء من على المنصَّة ببطء، وعادوا إلى مقاعدهم. ثم بدأ الأمين العام يعقِّب على الكلمة التي ألقاها سليم، ويصاحبه صوتُ المترجمة:

- نشكر (سليم عادل) ممثل جمعية (حماة كوكب الأرض) على هذه الكلمةِ المُلهِمةِ التي نرجو أن ينتبه إلى ما ورد فيها جميعُ قادةِ العالم. وأتمنى أن

يعيد المؤيدون لاستمرار الاعتماد على الوقود الأحفوري النظرَ في آرائهم، وأن يِضعوا في اعتبارهم أبحاثَ العلماءِ المفنِّدةَ لدعاواهم، ولا بد من وجود رقابة عالميَّة على تنفيذ الدول لبنود اتفاقية باريس للمناخ وتوصيات قمة المناخ بـ(غلاسكو)؛ لأن الأرض أصبحت تعاني من أفعالنا، ولا بد من التحرُّك قبل فوات الأوان.

الفصل الحادي عشر

هل ستنزل اللعنة؟!

خلافًا لِمَا توقَّعه الأصدقاء الثلاثة، زحفت الكآبة على قلوبهم بعد المؤتمر، بالرغم من الاحتفاء والترحيب الذي تلقوه، والتظاهرات الحاشدة بالخارج التي هتفت بأسمائهم... إلا أن شيئًا ما كان يثير ارتيابهم وخشيتهم من ألَّا يتعدَّى الأمر كونه مجرَّد زوبعة في فنجان، لن تلبث أن تختفي، ويعود الحال إلى ما كان عليه!

ولقد زادهم قلقًا، تلك المناورةُ التي قاموا بها، بتوجيهات من هاري وينكلر وإيثان، للفرار من مقر الأمم المتحدة، بعد أن وصلت معلومات إلى هاري وينكلر تفيد بنيَّة السلطات الفيدرالية القبض عليهم للتحقيق معهم بخصوص مجيء الأطفال إلى الولايات المتحدة الأمريكية بجوازات سفر مزوَّرة!

وقد ظلَّ هاري وينكلر صامتًا طوال رحلة العودة؛ ممَّا زاد الأطفال يقينًا بأن هناك أمورًا أخرى تشغله أكبر من محاولة القبض عليهم. وبغتةً، طلب من إيثان أن يغيِّر الوجهة، ويذهب بهم إلى أحد الكافيهات بشارع (ليفينجستون)، ولم يُجِبْ عن تساؤلاتهم، إلى أن اجتمعوا حول الطاولة، وأشعة وقت العصر الواهنة يزيدها زجاج نوافذ الكافيه المعتم وهنًا. وبدت

الأجواء كأنها تشارك هاري وينكلر في كآبته.
بدأ يخبرهم ببطءٍ أن ما كان يخشاه قد حدث! فقد ألقي القبض في بريطانيا على أكثر الكوادر نشاطًا في جمعية حماة كوكب الأرض، والذين كان يُفترض أن يتحرَّكوا عقب كلمة سليم مباشرةً، لتنفيذ الخطَّة التي وضعها هاري وينكلر، لولا أن سبقتهم الأجهزة الأمنية. وكذلك فُضَّت بالقوَّة المفرطة تظاهرات عديدة في الولايات المتحدة وفرنسا والصين، بالإضافة إلى مطالباتٍ قويةٍ داخل مصر بإسقاط الجنسية عن الأطفال وآبائهم، بدعوى انتمائهم إلى جماعة إرهابية!
قال سليم، بينما رنيم تكتب لكريم ما يُقال:
- لقد فعلنا ما يرضي ضمائرنا، وسوف نستمر في النضال لكي ننقذ العالم.
فقال له هاري وينكلر:
- هذا ما أتمناه يا سليم. يجب أن نتَّحد، وأن ننتقل في ثورتنا العالمية إلى مستوى جديد... فإن أخشى ما أخشاه أن يتَّهمونا بالإرهاب، ثم يبددوا جمعَنا، ونصبح مطاردين، إلى أن يتمكَّنوا من إسكات أصواتنا وتدمير العالم دون أن يتصدَّى لهم أحد. وأنا الآن مهدَّد أكثر من أي وقتٍ مضى، وخاصةً بعد القبض على أهم الكوادر في جناحنا العسكري السري، ولا بد لنا الآن من التخفِّي قبل فوات الأوان.
فقال كريم بحماس:
- لن نيأس... هذه هي المعركة الأخيرة للخير في مواجهة الشر... الهزيمة تعني فناءنا جميعًا... والانتصار يعني فرصةً جديدةً للبشر في هذا العالم.
فابتسم هاري وينكلر، وقال مشجِّعًا:

- أتمنَّى أن ننتصر يا كريم... أتمنَّى أن ننتصر. ولكن الخطوة الأهم في هذا الوقت هي التخفِّي. لقد استأجر إيثان كوخًا، قريبًا من إحدى الغابات، واشترى لكم بعض الملابس والأغراض التي ستحتاجونها هناك، إلى أن يجد حيلةً يحضر بها أغراضكم من الفندق دون أن يكتشف أحد. أظن أن الاختباء قليلًا في ذلك الكوخ سيكون مناسبًا للتفكير في خطوتنا القادمة... ولا أظن أننا سنتمكن من الانتقال إلى الخطوة القادمة إلا إذا حدثت معجزة.

فهمهمت رنيم على نحوٍ لم يفهمه أحد... لكن نظرتها الشاردة، التي لم تستمر لأكثر من جزء من الثانية، أثناء نهوضهم من مقاعدهم، استعدادًا للعودة إلى غرفهم - هذه النظرة، التي لم يلتفت إليها إلا كريم، كشفت له عن أن رنيم قد استسلمت ورضِيَتْ بالأمر الواقع! ستظلُّ خرساء، وسيظلُّ هو أصمَّ، ولن يستردَّ سليم البصر.

يبدو أن هذه المعركة ستستمر سنوات وسنوات... وعلى الأصدقاء الثلاثة أن يتحمَّلوا هذه التضحية، وأن يضعوا دائمًا مصير الكوكب فوق مصلحتهم الشخصية... إلى أن يحين النصر.

لم يكن الكوخ بشعًا كما توقَّع كريم، ولاحظ سليم أن رائحة الخشب المبلل التي تنبعث منه تسبغ عليه أجواءً أسريةً محببة، بينما تحولت نظرة رنيم الشاردة العابرة إلى حزنٍ يملأ كل ملامحها.

كان الكوخ أقرب إلى فيلَّا مجهَّزة جيدًا، ولم يكن صغيرًا كما توقعوا، بل كان يتألف من أربع غرف، وحمام واسع، وغرفة للجلوس، بها تليفزيون ٤٠ بوصة، وفي المدخل لوحات معلقة، وفازة موضوعة على طاولة صغيرة بقرب الباب. وكان الكوخ، مثلما أراد هاري وينلكر، منعزلًا، وقريبًا جدًّا من

الغابة، ومناسبًا تمامًا للاختباء، إلى حين تبدُّل الأوضاع.
تجول الأصدقاء الثلاثة قليلًا في المكان برفقة هاري وينكلر، ثم بدأ إيثان يضع على الطاولة طعام الغداء الذي اشتروه من أحد المطاعم الصينية.
وبعد أن أتموا الغداء في صمت، أشار عليهم هاري وينكلر بأن يستريحوا في غرفهم من إرهاق اليوم، ففعلوا مثلما قال، وسرعان ما كان كلٌّ منهم في فراشه، يتأمَّل ألوان الغسق المنطبعة على النوافذ، والسماء تتبدل رويدًا إلى اللون الأسود، وكان سليم يتخيَّل طبعًا هذا المشهد، ويتمنَّى في قرارة نفسه أن يبصره ولو لمدة دقيقة. كان الإرهاق قد بلغ منهم الغاية، ولذلك، بالرغم من الصراع النفسي والقلق الدائر داخل كل منهم، سرعان ما غرقوا في النوم.

في تمام الحادية عشرة مساءً، وبينما كان رئيس الولايات المتَّحدة الأمريكية في فراشه نائمًا وحده، بعد أن تناول قبل نصف ساعةٍ قرصًا من المنوِّم، بعد شجارٍ جديدٍ مع زوجته، التي توجَّهت بدورها إلى غرفتها بالبيت الأبيض بعد المشاجرة - بينما كان مستغرقًا في النوم، حلَّق في ظلام الغرفة فوق رأسه طيف صقر لونه فيروزي، يتوهَّج جناحاه، وهما يرفرفان فوق رأسه. وانبعثت فجأةً من فم الصقر دفقة من بخار لونه وردي، ما لبث الرئيس أن استنشقها، وعندئذٍ عبر طيف الصقر جدار الغرفة إلى خارج البيت الأبيض، وطاف مرتين بالمكان، فارتسم على أحد جدرانه الخارجية نقش ضخم لعين حورس، وتحته كلمات بالهيروغليفية.
ولم تمض أربع ساعات، إلا وجميع مقار الحكم في جميع دول العالم

موسومة بنفس النقش ونفس الكلمات!

وسرعان ما اهتمَّت وكالات الأنباء بهذا الأمر، وخاصَّةً حين تبيَّن لهم أن رؤساء العالم جميعًا قد أصابتهم غيبوبة، ونُقلوا جميعًا إلى المستشفيات!

وكان هاري وينكلر في تلك اللحظة يتابع القنوات الإخبارية بشغفٍ متنامٍ، برفقة إيثان، وقال له وهو يتأمل صورة النقوش المعروضة على التليفزيون:

- يبدو أن المعجزة حدثت! ولكن من هذا الذي يملك من الشجاعة والقوة والانتشار ما يمكنه من تنفيذ هذا الأمر بهذا الإتقان، وبهذا التزامن، في كل بلاد العالم؟!

فتساءل إيثان:

- هل أوقظ الأطفال؟

فأجابه هاري بنبرةٍ حاسمة:

- لا لا... دعهم يستريحون؛ فقد أرهقوا اليوم جدًّا. و... ما هذا؟!

في تلك اللحظة، كان أحد علماء المصريات يقرأ ترجمة النقوش الهيروغليفية الموجودة على مقار الرئاسة في العالم:

«لم يكن حكامكم على قدر المسئولية فاستحقوا لعنة حورس. لم يُعمِلوا عقولهم، فغيَّبنا عنهم هذه العقول. لم يخشوا عاقبة الطمع، فحرمناهم من كل ما كسبته أيديهم من الطمع. وسيظلون في سباتهم إلى أن يمثلوا بين يدي أوزير، وسيلحق بهم كل حاكم يسير على نهجهم. هذه هي فرصتكم الأخيرة، فإن ضيعتموها، فسوف تستحقُّون غضب الإلهة سخمت».

قطَّب هاري وينكلر، ونهض من مقعده غيرَ مُصدِّق ما سمعه، وانحنى إلى الأمام وهو يهتف:

- ما هذا يا إيثان؟ ما هذا؟! أنا رجل علم، ولا أصدق هذه الخرافات، ولكن... من الذي دبَّر هذا الأمر؟! وكيف استطاع تنفيذه بهذا الإتقان، بغض النظر عن الأساطير التي لا أومن بها؟!

فقال إيثان:

- يبدو يا بروفيسور هاري أننا لسنا الوحيدين الذين نملك جناحًا سريًّا في جماعتنا، وأن في هذا العالم أشخاصًا غيرنا مستعدين لأضعاف أضعاف تضحياتنا، في سبيل إنقاذ الأرض.

ومستطردًا:

- هل أنت متأكد من رغبتك في ترك الأطفال نائمين دون إخبارهم؟

فابتسم هاري وقال:

- بالطبع يا إيثان... قد تكون هذه هي الليلة الأخيرة التي سينامون فيها بهذا العمق... فالأيام القادمة ستحمل الكثير، بعد ما حدث اليوم.

وظلَّا معًا إلى الساعة الثالثة فجرًا يتابعان تطوُّرات الأحداث، وهما غير مصدِّقين.

"الظلام هو البداية يا كريم"...

"الظلام هو البداية يا كريم"...

كان الجدار يقترب من كريم ببطء، والسقف كذلك يهبط حتى ليوشك أن يطبقَ على رأسِه. وكلما اقترب الجدار والسقف، اشتدَّ الصوت، الذي كان ينبعث من كل مكان حوله، وازداد المكان إظلامًا... وحاول أن يصرخ، لكن صوته كُتِم، ولعلَّ الصوت الآخر طغى على جميع الأصوات وبدَّدها...

"الظلام هو البداية يا كريم"...

"الظلام هو البداية يا كريم"...

ولامس الجدار صدر كريم وأرنبة أنفه، وضغط السقف على رأسه. لم يستطع أن يجلس. الحيِّز يضيق. الهواء يشحُّ، والصوت يكاد يصمُّ أذنيه... بل يكاد يصمُّ عقله... أجل، هذا الصوت يتردَّد في عقله لا أذنيه!

"الظلام هو البداية يا كريم"...

"الظلام هو البداية يا كريم"...

وفي هذه اللحظة، عجز عن التنفس، وأحسَّ بألمٍ شديدٍ في عظامه، وساد الظلامُ حتى لم يعد قادرًا على تبيُّن يديه، وأيقن بأنها النهاية، فصرخ الصرخة الأخيرة... فاندهش لمَّا سمعها هذه المرة... واندهش أكثر حين انفضَّ عنه كلُّ شيءٍ في أقل من لحظة، ووجد نفسه واقفًا على أرض بيضاء، تُطِلُّ على أفق أبيض... البياض يملأ كلَّ شيءٍ... وعندئذٍ، رأى طائرًا صغيرًا يتقافز من مكان إلى آخر، وسمع تغريدَ عصافير...

عصافير...

عصافير...

عصا...

انتفض كريم فجأةً... وأخذ يتأمَّل الغرفة في ضوء الفجر الخافت، وببطءٍ صدم إحدى راحتيه بالأخرى، فسمع... سمع صوتًا خافتًا. فصفق بقوة، فسمع الصوت أوضح وأشد، فابتسم وأنفاسه تتسارع، وما لبث أن سمع مرةً أخرى تغريد العصافير الذي أيقظه، فأحسَّ في هذه اللحظة كأنه يولَد من جديد!

انتفض ناهضًا من فراشه بنشاط، وخرج من غرفته مسرعًا، وفتح برفقٍ باب غرفة رنيم، فوجدها في مواجهته، ترتدي ثياب الخروج. ودلَّته ملامحها المبتهجة على أن ما توقعه قد حدث.

ووجدها تقول له بصوتها الناعم:

- صباح الخير يا كريم.

فلم يصدق أذنيه... أخيرًا سمع صوت رنيم الذي افتقده كثيرًا. ووجد نفسه يضحك على غير عادته، وركض نحوها، وصافحها بكلتا يديه، وهو يقول:

- أخيرًا يا رنيم... أخيرًا سمعت صوتك. والله إن سعادتي باستردادك القدرة على الكلام لا توصف... ما أجمل أن يكون صوت العصافير وصوتك هما أول شيء يدخل إلى أذني بعد استرداد حاسة السمع.

فابتسمت رنيم وقالت:

- هذا أكبر دليل على أننا لم نفشل، وأننا على الطريق السليم.

قطب كريم وقال:

- السليم! هل تفقَّدتِ سليم؟

فقالت بهدوء:

- لقد سبقنا جميعًا... انظر!

وأشارت إلى النافذة، فرآه كريم واقفًا وسط الأشجار يتأمل السماء، وأردفت رنيم:

- لقد ارتديت ملابس الخروج لكي أوقظك ثم نخرج لتهنئة سليم.

- إذًا فلنخرج الآن يا رنيم. لا أحتمل الانتظار.

وسرعان ما كانا يخرجان معًا من الكوخ، متشابكي اليدين، وهما يتجهان صوب سليم.

الفصل الثاني عشر

النهاية... أم البداية الجديدة؟!

كان الأصدقاء الثلاثة واقفين في الغابة المليئة بالأشجار المتشابكة، والطيور من حولهم تغرِّد، يصاحبها حفيفُ أوراق الأشجار التي تنساب من خلالها الرياح الباردة. وكانت عن يمينهم شجرةٌ ضخمةُ الجذع، وأسفلها فجوة ضخمة.

وقالت رنيم لصديقيها في مرح:

- إن من يرانا اليوم ينكر تمامًا ما كنَّا عليه أمس. لقد أصابنا الحزن والإحباط، وكنا على وشك أن نعلن هزيمتنا، لكنَّ في استردادِنا حواسَّنا اليوم إشارةً إلى أننا لم نُهزَم، وأننا نجحنا في أول معركة من حرب تحرير العالم من سلطة المفسدين.

فقال سليم:

- أنا لا أصدق عينيَّ...

وأخذ يتجوَّل في الغابة، ويمعن النظر في الأشجار والأزهار، ثم أردف:

- أيوجد في الطبيعة كلُّ هذا الجمال، ولا يتورَّع الناس عن تدميره؟! لا فرق بين من فَقَدَ بصره، ومن فَقَدَ بأفعالِهِ المدمِّرةِ هذه المناظرَ الطبيعيةَ الخلَّابةَ التي تُمَتِّع الأنظار.

فقال كريم:

- إن لدينا نعمًا كثيرة لا نشعر بها إلا حين نفقدها. هل تعلمان أن حاسة السمع شديدة الحساسية، وفقدانها قد يؤدِّي إلى الجنون أكثر من فقدان أي حاسة أخرى؟ لقد عانيتُ كثيرًا طوال الأيام التي فقدتُ فيها سمعي. حين تمرُّ عليك الساعات دون أن تسمع صوتًا يطمئنك، يملؤك الرعب والشكوك. كنت قد قرأت من فترةٍ قصةَ الكاتبة الأمريكية (هيلين كيلر)، التي كانت كفيفةً صمَّاءَ بكماء. كانت تقول إن الصممَ هو أسوأ شيءٍ في العالم. في الظلام لا ينقذك سوى سماع صوتٍ مألوفٍ يهدِّئك. وبالرغم من أنني استيقظت على صوت العصافير المغرِّدة، إلا أن ما سبق الاستيقاظ كان شيئًا لا أتمنَّى أن أتذكره.

وحكى لهما تفاصيل الكابوس. وبعد أن انتهى، قالت رنيم في شرود:

- الظلام هو البداية!

فقال سليم مطَمئنًا:

- لكن خاتمة الكابوس جيدة... لقد أسفر الظلام والضيق عن انفراجة عظيمة... ليس فقط النور الذي ملأ العالم، بل واستعادتك حاسة السمع أيضًا... أنا أرى أن تلك رؤيا لا كابوس يا كريم... ولا سيَّما إذا علمتما ما قاله لي البروفيسور هاري وينكلر.

قطَّب كريم وتساءل في اهتمام:

- أليس البروفيسور نائمًا الآن هو وإيثان؟

أجاب سليم مبتسمًا:

- هما الآن نائمان فعلًا، ولكنني أيقظت البروفيسور هاري وينكلر. سأحكي

لكما من البداية... لقد كنت أول من استيقظ. فتحت عينيَّ، وذكرى رغبتي أمس، قبل أن أنام، في أن أرى السماء وقت الغسق، طَفَت بَغتةً على سطح أفكاري، ورأيت أمامي النافذة وهي تتلوَّن بألوان الغسق، فظننت أنني أحلم، أو أنني أتوهَّم... ولكنني انتفضت، واقتربت من النافذة، ورأيت بالفعل لون السماء الأزرق الغامق الذي أعشقه... وأنتم تعلمون أن الغسق يشبه الفجر... ثم تسلل برفق تغريد العصافير إلى أذني، فأحسست بالضبط كأنني أولَد من جديد.

فقال كريم:

- كلنا اليوم فعلًا وُلِدنا من جديد.

وتابع سليم:

- ارتديت ملابسي سريعًا، وأنا أملأ عينيَّ بكل لون وبكل تفصيلة صغيرة، وكنت متلهِّفًا على الخروج بأي شكل...

وصمت فجأةً، واحمرَّ وجهه وهو يقول محرَجًا:

- وأنا أعلم أن ما فعلته يُعتبر سلوكا أنانيًّا لأنني أرجأت الاطمئنان عليكما إلى حين خروجي إلى الغابة و...

فقاطعته رنيم قائلةً:

- لا تقل ذلك يا سليم. لقد أبصرت أخيرًا... هل تفهم ما أقول؟! لقد استرددت الحاسَّة التي تمكننا من الاستمتاع تقريبًا بكل الأمور الجذابة في هذه الحياة... فما فعلته طبيعي جدًّا.

هزَّ سليم رأسه، وقال لها:

- صدقيني يا رنيم... كنت مدفوعًا بما يُشبه الجنون، حتى إنني أخذت أدور

وأرقص في الكوخ، فلم أنتبه إلى الفازة المجاورة للباب، فسقطت على الأرض، ووجدت البروفيسور هاري وينكلر يخرج من غرفته مسرعًا، وقال لي وعلى وجهه آثار الإرهاق: "هل أنت بخير؟"، فلما وجدني ألتفت إليه وأنظر في عينيه نظرة مختلفة عن نظراتي السابقة الشاردة، وقلت له إنني استرددت حاسة البصر، ابتسم وقال إن الأخبار السارَّة تتتابع، وأخبرني بأن جميع رؤساء دول العالم أصيبوا بغيبوبة، وأن كل قصور الرئاسة نُقشت عليها عين حورس وتحتها سطور بالهيروغليفية تتضمَّن لعنة وتحذيرًا للبشر من الاستمرار في إفسادهم للكوكب، وإلا أصابهم مثل ما أصاب الرؤساء. ثم هنأني مرةً أخرى، قبل أن يعود إلى غرفته ليكمل نومه مطمئنًّا، وكأنه كان على يقين بأنكما ستستردَّان حواسَّكما مثلي!

فقال كريم مضيِّقًا عينيه:

- أشم رائحة حارس أبو الهول.

فتنهَّدت رنيم وقالت:

- الحمد لله... زالت اللعنة عنَّا، وحلَّت بمن يستحقها.

فقال سليم:

- مهما علا صوت التدمير والإفساد، فسوف يتغلَّبُ عليه في النهايةِ صوتُ العقل.

فقالت رنيم:

- لن يُدمَّر هذا العالم طالما كان هناكَ أشخاصٌ مدركون لدورهم نحوه.

وفي تلك اللحظة، كان سليم يقترب من جذع الشجرة الضخم، ويقول في فضول:

- ما هذا؟

فسأله كريم:

- ماذا تقصِد يا سليم؟

فقال سليم مشيرًا إلى الفجوة:

- إن هذه أضخم شجرة رأيتها في حياتي! وما هذه الفجوة؟ هل تريدان أن تنظرا معي؟

فقال كريم ورنيم معًا بنبرة زجر:

- سليم!

وأردف كريم:

- بالله عليك لا تُكرِّرْ ما فعلتَه من قبل يا سليم. لا نريد أن يحدثَ لنا مثلُ ما حدثَ لنا من قبلُ مع حارس (أبو الهول).

فترامى إليهم من اليسار صوت عميق يقول:

- وهل ما حدث لكم مع حارس (أبو الهول) كان أمرًا سيئًا؟

واقترب منهم حارس أبو الهول بقامته الفارعة ممسكًا برمحه البرونزي، ولم يخافوا منه هذه المرة، وإن تذكَّر سليم ما حدث له داخل التمثال، فتراجع قليلًا. وقالت رنيم للحارس مبتسمةً:

- يبدو أن عين (حورس) التأمَتْ أخيرًا بعد أن نفَّذنا ما طلبتَه منَّا.

فقال:

- أجل، لقد اجتمعت أجزاؤها بعد أن أتممتم إلقاء خطابكم في المجلس الذي ضمَّ قادةَ العالم.

فقال كريم موضِّحًا:

- الأمم المتحدة.

فقال الحارس:

- نعم، التأمت عين (حورس) على الفور، وأصبحتُ قادرًا على الخروج، وعلى إكمال مهمتكم بالطريقة التي يستحقها المفسدون.

أومأ كريم ورنيم مؤيِّدين له، بينما قال له سليم متعجِّبًا:

- لكنك قلت لنا إن الباب الذهبي لا يظهرُ إلا مرَّةً كلَّ مائة سنة، ولا يستمرُّ وجودُه إلا عشر دقائق. كيف خرجتَ مرة أخرى، برغم أن الباب اختفى بعد خروجنا من تمثال (أبو الهول)، قبل حوالي تسعة أيام؟

فرفع الحارس يده اليمنى أمام الأصدقاء، فلمع في رسغه سوار حورس، وقال لهم:

- باستخدام هذا السوار. لقد ضحَّيتُ بمائتي سنة لكي أتمكنَ من الخروج مرَّتين، مرة لأنزل اللعنة بالظالمين، والمرة الثانية للذهابِ في أقل من لحظةٍ إلى نيويورك، لأشكرَكم على ما فعلتموه.

فسألته رنيم مندهشةً:

- ضحَّيتَ بمائتي سنة؟!

- أجل. إن هذا السوار يمكِّنني من الخروج من تمثال (بر حر) في غير أوقات ظهور الباب؛ لكن الخروج لمرة واحدة، يمنع الباب الذهبي من الظهور لمائة سنة. وهذا معناه أن الباب لن يظهر مرة أخرى إلا بعد ثلاثمائة سنة، أي في عام 2325!

فقالوا معًا في دهشة:

- 2325!

فقال الحارس:

- نعم... لكنني سعيدٌ بهذه التضحية؛ فلا شيء عندي يكافئ أن أرى أطفالًا أذكياء مثلكم مرتين في أقل من أسبوعين. أنتم نموذج لِمَا يَجِبُ أن يكونَ عليه الجيلُ القادمُ، الذي يدرك مسئوليته تجاه هذا العالم، ويرفض تدميرَه.

فقال كريم:

- نحن أسعد بهذا اللقاء. لقد جعلتَنا نعرف قيمة السمع والبصر والنطق، مثلما جعلتَنا نعرف قيمة هذا الكوكب، الذي أفسده للأسف آباؤنا وأجدادنا بالتلوث وغيره من الأفعالِ المدمِّرة.

فقال الحارس بمودَّة:

- وأنتم أثبتُّم أنكم على قدر المسئولية. ولذلك أتيت الآن، لكي أدعوَكم للانضمامِ إليَّ!

فسأله سليم متعجِّبًا:

- الانضمام إليك؟!

- أجل، أدعوكم الآن لمشاركتي في حراسة تمثال (برْ حُرّ). ستظلون معي آلاف السنين، ونكون معًا حراسًا لكوكب الأرض، ونحميه من أيِّ سلوكٍ يُدَمِّرُه.

فسأله كريم:

- آلاف السنين! تقصد أننا سنعيش للأبد؟!

- لا، ليس للأبد. ستعيشون مائة ألف سنة فقط.

فهزَّت رنيم رأسها مستعجبةً وهي تقول:

- إن مائة ألف سنة تكافئ الأبدية في نظر أي إنسان!

فقال الحارس:

- بالضبط يا رنيم. ستعيشون كلَّ هذه الأعوام، وتبعثون للناس من حينٍ لآخر رسائلَ تقوِّمُهم، وتعيدُهم إلى جادة الصواب كلما أخطأوا أو أفسدوا. إن عين حورس لها قدراتٌ خارقةٌ، لكنها تتعاظم إذا اجتمع حولها أكثرُ من شخصٍ صادقٍ في محبتِه لهذا العالم مثلكم. وقد نتمكن -ونحن معًا- من الخروج من التمثال مرَّةً كلَّ خمسةٍ وعشرينَ عامًا أو أقل؛ لنوجِّهَ الناسَ إلى ما فيه صالحُ هذا الكوكب.

فسأل سليم صديقيه:

- ما رأيكما؟

فقالت رنيم:

- إن البقاء على قيد الحياة لمائة ألف سنة عرضٌ من الصعب رفضه.

بينما قال كريم:

- لكنني أفضِّلُ أن نظلَّ كما نحن، أبناءً لزمانِنا، نؤثر فيه، ويؤثر فينا، ونحاول دائمًا أن نرتقيَ بجميع البشر، ويجيء من بعدنا جيلٌ جديدٌ، يمشي على نهج الإصلاح نفسه، ويشعر بمسئوليته تجاه العالم. إن البشر لم يكونوا في حاجةٍ إلَّا إلى الشرارة الأولى... القطرة المنبِئة بدُنُوِّ المطر. والعالم لن يكون بعد ما فعلناه مثلما كان قبله. سيظلُّ دائمًا هناك رجال ونساء وأطفال يسعون إلى الحفاظ على الكوكب بشتَّى السبل. ولذلك أفضِّل أن نبقى هنا. إننا سنحيا داخل التمثال مائة ألف سنة، لكن دعوة الحفاظ على كوكب الأرض ستظلُّ للأبد. سوف نبقى في زماننا، وندعو إلى إنقاذ الأرض كلَّ يومٍ، ونُتمُّ مهمتنا التي عَلِمنا أمس بعد إلقاء كلمتنا في الأمم المتحدة أنها لن

تكون سهلة، وأننا سنواجه عوائقَ كثيرةً، إلى أن تصبح في هذا العالم رايةٌ واحدةٌ، تُوَحِّدُ الشعوبَ تحتَ ظلِّها، دونَ تفرقةٍ بين ثقافةٍ وثقافةٍ، أو بين عِرقٍ وعِرقٍ. وهذه الراية لن تحملَ غيرَ رمزٍ واحدٍ... رمز كوكب الأرض، يتوسَّط عين حورس... ذلك الرمز الذي نقشه الحارس، لا على جدران القصور الرئاسية فحسب، بل في وجدان كل إنسان.

فقال سليم:

- أنا أؤيد رأيك يا كريم.

وقالت رنيم:

- وأنا أيضًا.

فقال الحارس:

- إذًا أيها الأبطال، يبدو أن الوقتَ قد حان لكي أعود. لقد أوشكت الدقائق العشر على الانتهاء. هيا بنا لكي نعودَ معًا إلى مصر بواسطة سوار (حورس).

فقال سليم حزينًا:

- كيف نعود إلى مصر وقد سجنوا آباءنا، وقد يزجون بنا في السجن إن عدنا؟ بل حتمًا سوف يفعلون. فلا نعرف هل ستثنيهم اللعنة عن أفعالهم المدمِّرة أم سيتمادون!

وعندئذٍ وجدوا والد سليم ووالد كريم ووالدة رنيم يظهرون من وراء الأشجار ويقتربون منهم. وقال والد سليم:

- لقد خرجنا من السجن يا أولاد...

اتسع فم سليم من الدهشة وهو يبصر أباه أمامه، ولم يستطع أن يتحرك. غير أن أباه ركض نحوه، واحتضنه، وهو يطبع قبلاته على خديه، وكذلك فعل

الدكتور محمود والفنانة رولا مع ولديهما.

وقال حارس (أبو الهول) مازحًا:

- هل رأيتم؟ حتى السجون في بلدكم لا تقف عائقًا أمام سوار حورس.

وقال الدكتور محمود مخاطبًا الأطفال:

- ونحن الآن أصبحنا شركاء لكم في السر.

فضحكوا جميعًا، وقال الأستاذ عادل مخاطبًا سليم بنبرةٍ ذات مغزى:

- فلا حاجة إذًا لأن تشرح لي يا سليم ما حدث لكم في الأهرامات.

وقالت والدة رنيم:

- لقد كنَّا في حاجةٍ إلى ما فعله الحارس، وما فعلتموه لاحقًا، لكي تعود البشرية إلى المسار الصحيح. ولهذا...

والتفتت إلى الحارس وأردفت:

- يجب أن أشكرك باسم كلِّ البشر الساعين إلى إنقاذ كوكب الأرض. أنت رجل حكيم، وتستحقُّ أن يعرفَ العالمُ كلُّه بجهودِك.

فقال الحارس:

- لا يا سيدتي. أنا أُفضِّلُ أن يظلَّ ما سمعتموه ورأيتموه سرًّا. لا تزال الأخطارُ مُحدِقةً بنا، ويجب أن تضعوا في اعتباركم أن حماةَ كوكب الأرض لا يزالون أقلية، وأننا سنواجه معارضةً شرسةً، من تجَّار الخراب، الذين يهيجون الحروب ليتكسَّبوا من بيع الأسلحة، ويهاجمون الطاقة النظيفة ليحققوا أرباحًا هائلة من بيع الوقود الأحفوري. عِدُوني بأن يظلَّ ما بيننا سرًّا، حتى ينتصرَ صوتُ الحق.

فقالوا في نفس الوقت أنهم يعاهدونه على كتمان ما حدث.

- إذًا لقد آن وقت العودة. هل أنتم متأكدون الآن من أنكم لا تريدون الرجوع إلى مصر؟

فساد الصمت للحظاتٍ، قبل أن يقول سليم باندفاعه المعهود:

- بالتأكيد لن نعود... لم تنتهِ المعركة بعد.

وهنا ابتسم حارس (أبو الهول) للمرة الأولى، ومسح على سوار (حورس) وهو ينظر إليهم مودِّعًا. وفي لحظةٍ، كان مكانه خاليًا، ولم يعد في الغابة إلا الأصدقاء الثلاثة وآباؤهم.

نظر كريم ورنيم إلى سليم في عتاب مصطنع، وقال له كريم ممازحًا:

- لقد ضيَّعت علينا فرصة أن نركب البساط السحري... بهذه الطريقة سننتظر 300 سنة!

فقال سليم، وقد أحسَّ بانقباض مفاجئ:

- في الواقع يا صديقي، لقد أردت أن نُرجئ قرارَ العودة، لكي نحدِّد أولًا مكان معركتنا القادمة... نحن لا نعرف هل سيلتزمون بما كُتب على جدران قصور الرئاسة أم لا! وإذا حدث لنا أي شيء في هذه المرة، فلن يكون معنا حارس (أبو الهول) لينقذنا... تكفينا التضحية الهائلة التي قدَّمها لنا... تلك التضحية تضع على عواتقنا مسئولية كبيرة، هي أن نضع منظومة للحفاظ على الكوكب تصمد لثلاثمائة عام على الأقل... وسوف تكون عين حورس، التي نقشت في كل مكان في العالم، هي شعارنا، لتوحيد البشر على كلمة واحدة... كلمة الأرض... ولذلك فضَّلت أن نُرجئ قرار العودة... يجب أن نتريَّث، ونفكِّر جيدًا في الخطوة التالية، التي لن تكون سهلةً بالتأكيد.

فقالت رنيم مُطَمئِنة:

- هذه هموم وأسئلة الغد يا صديقي... أما اليوم، فلن نفعل شيئًا سوى أن نحتفل باسترداد حواسنا... فمن يعلم كيف ستكون معركتنا القادمة!

المحتوى

إهداء	٣
سجن عمره ٤٥٠٠ سنة!	٧
اللعنة	٢٣
هل جُنَّ الأطفال؟!	٣١
في الإسكندرية	٤٥
خطوة صغيرة نحو إنقاذ العالم	٦١
المواجهة!	٧٥
تسقط أنظمة الحكم وتحيا الأرض	٨١
#أنقذوا - الكوكب	٨٧
المطار	١٠١
في الأمم المتـَّحدة	١٠٧
هل ستزول اللعنة؟!	١١٧
النهاية... أم البداية الجديدة؟!	١٢٥